سلسلة التعريف
بعلم التاريخ 1

كيفية قراءة التاريخ وفهمه

د. محمد بن موسى الشريف
المشرف على موقع التاريخ



محمد بن موسى الشريف

١ - حقوق آل البيت والصحابة على الأمة
٢ - عظمة الله تعالى
٣ - أهل الإسلام والتفلت من ظاهر الإلتزام
٤ - الثبات أهميته
٥ - التنازع والتوازن فى حياة المسلم
٦ - العبادات القلبية
٧ - الترف وأثره فى الدعاة والصالحين
٨ - القدوات الكبار
٩ - الجانب الفكري للمشتغلين بالعلوم الشرعية
١٠ - العاطفة الإيمانية
١١ - حصول الطلب بسلوك الأدب
١٢ - التوريث الدعوي
١٣ - من مآسي الإفتراق وأثر ذلك على الأمة
١٤ - الأمن النفسى
١٥ - استجابات إسلامية لصرخات أندلسية
١٦ - أثر المرء فى دنياه
١٧ - الامام المجاهد يوسف بن تاشفين المرابطي
١٨ - عجز الثقات
١٩ - شخصية الشيخ عبد العزيز بن باز
٢٠ - الثقافة الآمنة
٢١ - حرية المرأة بين كتابات الإسلاميين وتطبيقات الغربيين
٢٢ - الهمة طريق إلى القمة
٢٣ - حياء المرأة - عصمة وأنوثة وزينة
٢٤ - علماء أسيا الوسطى
٢٥ - المرأة الداعية معالم وعقبات ومحاذير
٢٦ - ظاهرة التهاون بالمواعيد
٢٧ - جدد حياتك رسالة إلى من جاوز الأربعين
٢٨ - تسبيح ومناجاة وثناء
٢٩ - الخطاب الإسلامي بين الواقع والمأمول
٣٠ - عظماء منسيون ج1
٣١ - الصفات التى أنضجت دعوة النورسى
٣٢ - عظماء منسيون ج2
٣٣ - التدريب وأهميته فى العمل الإسلامي
٣٤ - عظماء منسيون ج3
٣٥ - ضوابط منهجية فى عرض السيرة النبوية
٣٦ - الطرق الجامعة للقراءة النافعة
٣٧ - الشوق والحنين إلى الحرمين
٣٨ - قصص وطرائف من الحج

دار التوزيع والنشر
١٥ آش بور سعيد - السيدة زينب - القاهرة
ت.فاكس ٢٣٩١٧٩٥٦ ت - ٢٣٩١٧٩٥٠
d.eltwzea@gmail.com www.eldaawabookshop.com



المملكة العربية السعودية
جده - حى الجامعة ت- فاكس ٠٠٩٦٦٢٦٨٧١٩٧٣
a_honen@hotmail.com

الترقيم الدولى : I.S.B.N





سلسلة التعريف بعلم التاريخ (١)

الرسالة الأولى
كيفية قراءة التاريخ وفهمه

تأليف

محمد بن موسى الشريف



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٣٧٧٧

الترقيم الدولى: I.S.B.N

978-977-725-054-2

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧



دار التـــوزيع والنـــشر
ش.ذ.م.م.

مصـــــر -القاهـــــرة -السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٢٩١٢٧٤٠ - فاكس: ٢٢٩١٧٩٥٦

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٢٩١٧٩٥٠

www.eldaawa bookshop.com

Email:d.eltwzea@gmail.com



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمن المعلوم أن التاريخ:

- هو تراث الأمة وكنزها.
- وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة.
- وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها.
- وهو مغترف العبر والعظات لأحداثها.
- وهو بيانٌ لسيرة عظمائها.
- وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجلّ.
- وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى.
- وهو وعاء الخبرة البشرية.

ولما كان التاريخ على هذا الوجه من الأهمية فقد تعلق به باحثون ودارسون، ودعاة وعاملون، ومشايخ ومفكرون، وأقبلوا يريدون الاستفادة مما فيه، واستخراجَ كنوزه ولآليه، وتقويمَ المجتمع اليوم بأحداث التاريخ: حاضره وماضيه، وحُقّ لهم ذلك؛ فللتاريخ بريق

جـذاب، وأَخْـذٌ بـالقلوب والألبـاب، وهـو الكنـز المـدفون، والمعْـدِن المصون.

- لكـن قـد عَسُر عـلى طوائـفَ مـن هـؤلاء المهتمـين الوقـوفُ عـلى قواعـد علـم التـاريخ، وكيفيـة قراءتـه، ومـا هـو الموثـوق منـه والمـتروك، ومـا هو المقبول منه والمردود.

- ثم إن بعض هؤلاء أراد التخصص في هذا العلم، والوقوف على قواعده وخصائصه، ومعرفة كتبه ورجاله، والقضايا المثارة حوله، وهذا ما أسميه بعلم إعداد المؤرخ.

- هـذا وقـد خـاطبني مَـن لا أحصـيهم كثـرة، مواجهـة ومراسـلة ومهاتفـة، يطلبـون مني كتابـة شيء في هـذا البـاب يكـون مغنيًـا لهـم وشـافيًا، ومحيطًـا بـما يريـدون وكافيًـا، ومُوقفًـا لهـم عـلى دقـائق هـذا العلـمِ الجليـل ومرشـدًا لهـم في سَبْر أغـواره، فوعـدتهم خـيرًا لكنـي أعلـم أني إن هجمـت على ذلـك فـإني إنـما أهجـم على أمر عظيم، وإن صنعت ذلـك فـإنما أتكلـف الحمـل الثقيـل، لكـن لمـا كثـر الإلحـاح عـلي واشـتدت المسـألة عزمـت عـلى عمـل شيء في هـذا البـابِ لكنـه مُجَزّءٌ إلى أجـزاء تخـرج تباعًـا إن شـاء الله تعالى، وإنما حملني على هذا الصنيع أمور منها:

١) إن إخـراج شيء مـوجز للنـاس ميسـورٌ علـيهم قراءتـه -عـلى وجـه متتـابع (سلاسـل)- سـيكون أفضـل مـن المطـولات التـي سـتبقى مرجعًـا لا يكـاد يقـرأه إلا قلـة مـن النـاس، خاصـة في هـذا العصر الـذي قَلّ فيـه الإقبـال عـلى المطـولات، وسـهل عـلى النـاس قـراءة

الرسائل الصغار والأجزاء الموجزة.

وما أحسن ما قاله الأستاذ الدكتور المحقق محمود الطناحي[١] - رحمه الله تعالى - لما صنف كتابه «الموجز في مراجع التراجم»:

«كنت أود أن أقف وقفة طويلة مع هذه المراجع؛ أكشف عن مناهجها، وأدل على طرائقها، لكني تركت ذلك -مع قدرتي عليه، وامتلاكي لأسبابه بفضل الله وعونه وتوفيقه- لأني أردت لهذا الدليل أن يكون خفيف المحمل، قريبَ المورد، سهل الاستيعاب؛ ولأن كثيرًا من طلبة العلم لم تَعُدْ لديهم القدرة على قراءة المطولات والصبر عليها؛ للذي عرفتَه من كثرة الصوارف والحواجز في هذه الأيام، وهذا بلاء قد عَمّ وساد، وكاد يستوي فيه العالم والمتعلم على السواء، وقد قالوا وأحسنوا: ما لا يُدرك كله لا يترك كله»[٢].

٢) ثم إن في هذا التتابعِ فرصةً لهضم المادة التي أُخرجت، وتشوقًا وانتظارًا للمادة التالية، وهذا أدعى للعناية والاهتمام.

٣) إن إخراج ما فُرغ منه إلى الناس خير من انتظار إعداد المادة

---

(١) ولد سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٥ في المنوفية بمصر. انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره، والتحق بمعهد القاهرة الديني التابع للأزهر وارتقى في الطلب حتى حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة. وهو أحد المحققين الكبار. وله مصنفات وتحقيقات ومقالات نافعة. وعمل في جامعة الدول العربية خبيرًا في معهد المخطوطات العربية بها، ودرّس في عدة جامعات مصرية وسعودية. توفي سنة ١٤١٩/ ١٩٩٩، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في ويكيبيديا في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) «الموجز في مراجع التراجم»: ٢١.

كلها؛ فإن العمر قصير، ولا يدري المرء متى يحل الموت بساحته، وقد مات علماء كبار وتركوا كتبًا عظامًا ابتدءوها لكنهم لم يفرغوا منها، فكان ذلك النقص غصة في حلوقهم وحلوق مَن بعدهم وحسرة وأسفًا وألمًا، والأولى أن يخرج للناس ما اكتمل، ولا يُنتظر الفراغ من كل العمل، والله أعلم.

ولهذا سأبدأ بالأمر الذي يهم العامة، وهو كيف يُقرأ التاريخ ويُفهم، وسأُخرج بعد ذلك -إن شاء الله- تباعًا رسائل مكملة لهذه الرسالة لعامة القراء، وأخرى لمن أراد التخصص في هذا الفن الجليل.

وسيكون كلامي في هذه السلسلة عن التاريخ الإسلامي فقط أما تواريخ الأمم الأخرى فله حديث آخر؛ إذ له قواعد ومناهج ومصادر ومراجع تقترب حينًا وتبتعد أخرى من تاريخ الأمة الإسلامية، والله أعلم.

وفي هذا الجزء وما سيتلوه من أجزاء سيكون هناك بعض القضايا التي ربما تُطرق في أكثر من جزء، والسبب هو تنوع موضوع الجزء، وأهمية أن يذكر فيه بعض القضايا ولو ذكرت في جزء آخر، لكنني سأحرص على عدم تكرار طريقة العرض إن كررت شيئًا من المضمون، إن شاء الله تعالى.

ومن لم يجد بغيته في هذا الجزء الأول فلربما وجدها في الجزء الثاني أو الثالث أو ما بعده، وذلك شأن الكتب التي تنزل تباعًا وتكون في موضوع كلي واحد، أن يُكمل بعضها بعضًا، وأن يأخذ بعضها بحُجَز بعض حتى

تكون سلسلة تامة الحلقات، إن شاء الله تعالى.

وسوف أشير في بعض المواضع من الكتب إلى أماكن طرق بعض الجوانب التي ربما تكون أنسب في كتاب دون كتاب[١].

والله تعالى أسأل العون والإخلاص والتوفيق، وصلِّ اللّهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا
العبد الضعيف
محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

---

(١) هذا وليُعلم أني أعرضت عن تفاصيل كثيرة جدًّا مدونة في مقدمات كتب التاريخ الحديث والأبحاث التاريخية المنشورة ؛ وذلك أني لم أجد أن الحاجة إليها ماسة لفهم التاريخ، وذلك نحو التفصيلات المدونة لكتابة التاريخ: كيف دُوِّن، وماهية المرويات الشفهية، والورق الذي دُون عليه التاريخ، والتطورات التي صاحبت كل ذلك، ومن هم رواة البصرة، ومن هم رواة الكوفة، ومن هم رواة المدينة النبوية المنورة، ومن هم رواة الشام، والرواة من العرب، والرواة من الموالي، والنزعة الشعوبية الأولى في تدوين التاريخ، وتاريخ العرب في الجاهلية، وتاريخ الصراع بين القبائل، تركت كل ذلك وأمثاله مما أرى أنه يسبب الملل وربما الخلط واللبس لقارئ هذه الرسالة، التي أريدها موجزة واضحة تأخذ بيد قارئها إلى فهم عام للتاريخ ليس فيه خلط ولا لبس، ولا مواضع غموض، أو موضوعات يمكن الاستغناء عنها وتجاوزها، ويمكن لمريد ذلك التفصيل الطويل أن يرجع إلى كتب حديثة كثيرة تكفلت ببيان ذلك، وعلى رأسها «التاريخ العربي والمؤرخون» للأستاذ شاكر مصطفى، رحمه الله تعالى.



تمهيد

المطلب الأول
تعريف علم التاريخ وفضله

قد كثرت التعاريف لعلم التاريخ، وتكلم القدماء والمعاصرون من المؤرخين في تعريفه، فممن عرفه الأستاذ المؤرخ الجبرتي الحبشي ثم المصري[1]، فقال - رحمه الله تعالى - في تعريف علم التاريخ:

«اعلم أن التاريخ علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم»[2].

وقال في فضله: «علم التاريخ علم شريف، فيه العظة والاعتبار، وبه

---

(١) هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم، وهو حبشي الأصل، ومصري المولد والنشأة والمواطن، جاء أسلافه مصر من جبرت: إحدى مقاطعات الحبشة، وكان أبوه الشيخ حسن عالمًا من علماء الأزهر. ولد عبد الرحمن في القاهرة سنة ١١٦٧هـ. وهو معدود خاتمة المؤرخين الكبار في مصر. ويظهر من كتاباته تمسكه واعتزازه بدولة الخلافة العثمانية وسخطه على المماليك الظلمة، وتبرمه الشديد من ظلم محمد علي وشدة بأسه وسطوته. توفي عبد الرحمن الجبرتي في القاهرة سنة ١٢٤١، ويزعم بعض المؤرخين أنه مات مقتولًا، والله أعلم. انظر «الأعلام» ٣/ ٣٠٤.

(٢) «عجائب الآثار»: ١/ ٦.

يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار... وقد قال الشافعي[١] رضي الله عنه: من علم التاريخ زاد عقله»[٢].

وقال الناصري[٣]:

«اعلم أن التاريخ من أجلّ العلوم قدرًا، وأرفعها منزلة وذكرًا، وأنفعها عائدة وذخرًا، وكفاه شرفًا أن الله، تعالى، شحن كتابه العزيز- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بما أفحم به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب، ثم لم يكتفِ - تعالى - بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم، وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم فقال جل وعلا:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

[الأعراف: ١٠٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

---

(١) محمد بن إدريس الشافعيّ، الإمام المشهور. كان ذا ذكاء نادر وصاحب لغة مستقيمة لم يؤثر عنه لحن قط. توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٤. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٥/١٠ وما بعدها..

(٢) المصدر السابق: ٩/١.

(٣) هو أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي، شهاب الدين، السلاوي: مؤرخ بحاث. ولد سنة ١٨٣٥/١٢٥٠ في مدينة سلا بالمغرب من أسرة تنتمي إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. له عدة مصنفات، وكان موظفًا في مصلحة الجمارك ببلده، وتنقل في أعمال حكومية أخرى، ثم انقطع عن مخالطة الناس وانكب على إتمام مؤلفاته إلى أن توفي في سلا سنة ١٨٩٧/١٣١٥. انظر «الأعلام» ١/ ١٢٠، ١٢١.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

[يوسف: ١١١].

وقد كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يحدث أصحابه بأخبار الأمم الذين قبلهم، ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم، ويقوي إيمانهم ويؤكد فضلهم، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري - رحمه الله تعالى - كفيل بهذا الشأن، وآتٍ من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان [١].

وقال أيضًا، رحمه الله تعالى:

وبالجملة ففضيلة علم التاريخ شهيرة، وفائدته جليلة خطيرة، ومادحه محمود غير ملوم، والحديث بفضله حديث بمعلوم، ولله در ابن الخطيب[٢] إذ يقول:

وبعدُ فالتاريخ والأخبارُ   فيه لنفس العاقل اعتبارُ
وفيه للمستبصر استبصار   كيف أتى القوم وكيف
يُجري على الحاضر حكم   فيثبت الحق بسهم صائبِ

---

(١) «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى»: ١/٥٩.

(٢) محمد بن عبد الله بن سيد السلماني، قرطبي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبدالله، لسان الدين ابن الخطيب. ولد سنة ٧١٣ بـ «لوشة»، وقرأ القرآن والقراءات والعربية، وتأدب، وأخذ المنطق والحساب والطب وبرز فيه، وتولع بالشعر ونبغ فيه وله قصائد كثيرة جدًا، ومصنفات كثيرة، وترسّل ففاق أقرانه، واستوزره السلطان مرتين، وكان يلقب بذي الوزارتين: السيف والقلم، سعى بعض حساده فيه فقتل في محنة جرت عليه سنة ٧٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/٨٨-٩٣، و«الأعلام»: ٦/٢٣٥.

وينظـر الـدنيا بعـين النبـل ويـترك الجهـل لأهـل الجهـل

وقال آخر:

لـيس بإنسـان ولا عاقـلِ من لا يعي التاريخ في صدرهِ

ومن روى أخبار مَن قد مضى أضـاف أعـمارًا إلى عمـرهِ

ثم قال: «فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه، بل له فوائد أُخَرُ جليلة لو قيل بعدم حصرها لما بَعُد»[1]!!

قال ابن خلدون في علم التاريخ:

«فن عزيز المذهب؛ جَمُّ الفوائد، شريف الغاية.

يُوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا».

وقال الإمام السخاويّ[2]: «إن التاريخ جَمّ الفوائد، كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جُبلت عليه طباعهم من الارتياح عند

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٦٠ - ٦٢.
وقد استقيت تلك النصوص في فضل التاريخ وأهميته من كتاب «علم التراجم: أهميته وفضله» للدكتور إبراهيم الريس.

(٢) الشيخ الإمام العلامة الرُحَلَة الحافظ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٣١هـ، وأخذ عن كثير من المشايخ، واختص بشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكان يحبه ويثني عليه، وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ٩٠٢هـ بالمدينة المنورة بعد مجاورته زمنًا فيها، رحمه الله تعالى. انظر: «النور السافر»: ١٦-٢٠.

سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرّب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه فيغزر عقله، ويصير مجربًا غير غِرّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]:

«فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنّة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم».

تعريف التاريخ عند المعاصرين:

تنوعت تعاريف المعاصرين للتاريخ، وتشعبت أقوالهم فيه تشعبًا يطول على مريدي فهم التاريخ ومعرفة طرائق قراءته قراءة واعية مفيدة، لكني سأورد بعض أقوالهم المهمة التي تفيد القارئ للتاريخ وتعينه على فهمه، فمن ذلك:

- قال الدكتور قاسم عبده[٢]: إن هناك تفريقًا شائعًا بين كلمة التاريخ كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على سطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول

---

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، يُدعى لجدته تيميّة. أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي -رحمه الله- سنة ٧٢٨ بدمشق مسجونًا بعد أن خلف علمًا كثيرًا ومصنفات عديدة. انظر «الدرر الكامنة»: ١/١٥٤-١٧٠.

(٢) قاسم عبده قاسم. مؤرخ مصري. ولد سنة ١٣٦١/١٩٤٢. حصل على الماجستير والدكتوراة في علم التاريخ، وله مؤلفات كثيرة في علم التاريخ وغيره. ولي عدة مناصب، وكان عضوًا في عدة هيئات مصرية وعالمية. انظر ترجمته في «ويكيبيديا».

إعادة تسجيل وبناء وتفسير الإنسان على كوكبه[١].

- وقال الأستاذ مولاي مصطفى البرجاوي في مقالة له باسم «مصطلح التاريخ»:

من خلال تتبُّع التَّعاريف اللغويَّة لكلِمة «تاريخ»، نجد أنَّ تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى علماء اللغة، حيث ذكروا أنَّ التأريخ: «تعريف الوقت، أرَّخ الكتاب: وقَّته»...

أمَّا عن أصل الكلمة، فقد اختلف فيه؛ فقد قيل: إنَّه عربي، وقيل: إنَّه غير ذلك...

وعمومًا، فإن التاريخ لغةً يعني تحديد الزمن.

ثم بين الأستاذ البرجاوي المعنى الاصطلاحي فقال:

قبل التطرُّق إلى اصطِلاح العلماء للفظة تاريخ، يجب التنبيه إلى نقطة مهمة جدًا، وهي أنَّ لفظة تاريخ قد استُعمِلت في الاصطلاح على نحوين اثنين، فتارة تستعمل ويراد بها مضمون ومحتوى المادة التَّاريخية، وتارة أُخرى تستعمل ويراد بها طريقة التَّعامل مع هذه المادة، وهذه الازدواجية في الاستعمال أدَّت إلى خلط في فهْم معنى اللفظ.

كما أنَّ التاريخ - اصطلاحًا - قد تنوَّعت تعاريفه وتعدَّدت، بتنوُّع ثقافات ومشارب، وأهواء وانتماءات، ومذاهب الذين ولجوا موضوعه.

---

(١) «ويكيبيديا»: تاريخ.

أصل المصطلح:

يصرُّ الدكتور عبدالله العروي[1] على عروبة مصطلح التاريخ، فيقول: «إنَّ تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب، لقد فشلت المحاولات للعثور على مؤثِّرات خارجيَّة - يونانيَّة أو فارسيَّة - على غرار ما كشف عنه المنقِّبون من مؤثِّرات أجنبيَّة في الفلسفة وعلم الكلام، ليس التَّاريخ الإسلامي نقلًا أو اقتباسًا أو استعارة من الغير، إنَّ كلمة «تاريخ» كلمة عربيَّة، والكلمة الأجنبيَّة «أسطوريا» التي كان من الممكن استعارتها، استعمِلَت فعلًا لكن في معنى آخَر؛ للتَّعبير عن القصص الخياليَّة والميثولوجيَّة[2]، التي لا تَخضع لقوانين المُراقبة والفحْص والتَّدقيق، كحوادث التاريخ القريبة أو البعيدة».

لهذا فإنَّ كلمة «التاريخ» تعني في المعجم: الغاية والوقت الذي ينتهي إليه كلُّ شيء، وبذلك يتَّصل المعنى بحركة الزَّمن المرصودة، وليس بالحكاية الأسطوريَّة التي تشير إليْها كلمة History باللغات الأوربيَّة.

---

(١) ولد الدكتور عبد الله العروي بمدينة أزمور بالمغرب سنة ١٣٥٣/١٩٣٣. تلقى تعليمه في العاصمة المغربية الرباط. تابع تعليمه العالي في فرنسا في جامعة السوربون وفي معهد الدراسات السياسية بالعاصمة الفرنسية باريس. حصل سنة ١٩٥٦ على شهادة العلوم السياسية ، وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ سنة ١٩٥٨ ، ثم على شهادة التبريز في الإسلاميات عام ١٩٦٣. وفي سنة ١٩٧٦ قدم أطروحة بعنوان «الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية: ١٨٣٠-١٩١٢»؛ وذلك لنيل دكتوراه الدولة من السوربون. وله توجه بعيد عن شريعة الإسلام وما يدعو إليه هذا الدين العظيم. انظر ترجمته في الوكيبيديا وجوجل.

(٢) أي الخرافة.

تعريف التّاريخ عند الإغْريق والرومان:

* الأصل لكلمة (Istoria) اليونانيَّة: عندما نشطت الحركة الفكرية والسياسيَّة في الدويلات اليونانيَّة في القرنين ٦ و ٥ ق.م كانت هذه الكلِمة تعني: (البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة)، كمعرِفة البلْدان، العادات، المؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، لكنَّ الكلِمة ما لبثتْ أنِ اقتَصَر مدلولُها على (معرفة الأحداث التي رافقتْ نُمُوَّ تلك الظواهر).

* أمَّا الرومان: فقد أخذوا الكلمة بمعناها ومبناها، صارت عندهم (Historia)، التي اشتقَّت منها اللغات الأوربيَّة الحديثة كلمة (History) الإنجليزيَّة، و(Histoire) الفرنسيَّة.

وتطلق لفظة «تاريخ» تارة على الماضي البشري ذاته، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعنيِّ بهذا الموضوع.

ثم بيَّن الأستاذ البرجاوي أن هنالك لبسًا في اللغات الأجنبية في المصطلحات الدالة على هذا العلم، فقال:

(Histoire) الفرنسية، و(history) الإنجليزيَّة، و(Geschichte) الألمانيَّة، تستعمل الكلِمة للمعنييْن على السَّواء؛ إذْ يُراد بكلٍّ من تلك الكلمات الإفرنجيَّة حوادث الماضي، وأحيانًا أخبار هذه الحوادث، أو العلم الذي يحقِّقُها.

وقد حاول بعض الباحثين في الغرْب التمييز بينها، فأطلق بعض الفرنسيين مثلًا كلمة Histoire – بـ«H» كبرى – على الماضي، وhistoire –

بـ«h» صغرى - على العلم الذي يدرسه.

واحتفظ الألمان (بعضهم) بـGeschichte للمعنى الأول، وHistoire للمعنى الثاني، ولكن العادة الجارية ظلَّت غالبة، وبقي اللَّبس قائمًا.

ولعلَّ ذلك ناشئ عن شعور أصيل في الإنسان بالارتباط الدقيق بين معرفة الماضي والماضي ذاته؛ أي: بين المعرفة التاريخيَّة والكتابة التاريخيَّة[١].

وأرى والله أعلم - أن هذه التعاريف للتاريخ كافية إن شاء الله في بيان المراد من علم التاريخ بيانًا يفيد القارئ غير المتخصص، والله أعلم.

***

(١) انظر شبكة موقع «الألوكة» على شبكة الإنترنت.

المطلب الثاني
مبدأ التاريخ الهجري

لمبدأ التاريخ الهجري قصة جليلة، فقد كتب أبو موسى الأشعري إلى الفاروق عمر - رضي الله عنهما- إنه يأتينا من قِبَلك كتب ليس لها تأريخ فأرِّخ.

فاستشار عمر في ذلك، فقال بعضهم: أَرِّخ لبعث رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: لوفاته.

فقال عمر: لا، بل يؤرخ لمهاجره، فإن المهاجَرة فرق بين الحق والباطل، فأرَّخ به[١].

وعن أبي الزناد[٢] قال: «استشار عمر في التأريخ فأجمعوا على الهجرة»[٣].

وفي رواية أن رجلًا من المسلمين قدم من أرض اليمن، فقال لعمر: رأيت في اليمن شيئًا يسمونه التأريخ، يكتبون من عام كذا وشهر كذا.

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن الشعبي كما في «الشماريخ في علم التاريخ» للسيوطي: ١٤.

(٢) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن ذكوان المدني. ولد سنة ٦٥ وحدَّث عن جماعة من الصحابة، وكان من أعلم الناس بالفقه والعربية والفرائض.
توفي سنة ١٣٠ رحمه الله تعالى، وكان من الثقات الكبار. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/٤٤٥-٤٥١.

(٣) «الشماريخ»: ١٤.

فقال عمر: إن هذا لحسن فأرِّخوا.

فلما أجمع على أن يؤرخ شاور، فقال قوم: بمولد النبي ﷺ، وقال قوم: بالمبعث، وقال قوم: حين خرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة، وقال قائل: لوفاته حين توفي.

فقال: أرخوا خروجه من مكة إلى المدينة.

ثم قال: بأي شهر نبدأ فنصيِّره أول السنة؟!

فقالوا: رجب لأن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه، وقال آخرون: شهر رمضان، وقال بعضهم: ذو الحجة، فيه الحج، وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة، وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أَرِّخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام، وهو أول الشهور في العِدّة[١]، وهو منصرف الناس عن الحج، فيصير أول السنة المحرم، وكان ذلك سنة سبع عشرة[٢].

ـ وأخرج الإمام البخاري في «الأدب المفرد» بسنده عن ميمون بن مهران[٣] قال:

رُفع إلى عمر صَكّ محله شعبان، فقال: أي شعبان؟ الذي نحن

---

(١) أي في عد الشهور الحرام.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو أبو أيوب الجزري الرقي. إمام تابعي حجة. روى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. ولد سنة ٤٠، وتوفي سنة ١١٧، رحمه الله تعالى. وكان من ثقات السلف وكبارهم. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/٧١-٧٨.

فيه، أو الذي مضى، أو الذي هو آتٍ؟

ثم قال لأصحاب النبي ﷺ:

«ضعوا للناس شيئًا يعرفونه من التاريخ.

فقال بعضهم: اكتبوا على تأريخ الروم.

فقال: إن الروم يطول تأريخهم، يكتبون من ذي القرنين.

فقال: اكتبوا على تأريخ فارس.

فقال: إن فارس كلما قام ملك طرح مَن كان قبله.

فاجتمع رأيهم أن الهجرة كانت عشر سنين، فكتبوا التأريخ من هجرة النبي ﷺ»(١).

ومن هنا لا بد أن يُعلم أن للتاريخ الهجري مكانة جليلة فبه تعرف الشهور الهجرية خاصة رمضان والحج، وبه أُرخ لأحداث الإسلام العظام، ولم يكن أحد من المسلمين يظن أنه سيأتي يوم يُهمل فيه التأريخ الهجري أبدًا، فلما نزل المحتلون ببلادنا شجعوا الناس على التأريخ بالتاريخ النصراني، وشيئًا فشيئًا كُتب ذلك التاريخ مع التاريخ الهجري، ثم استغنى المسلمون عن التاريخ الهجري واكتفوا بالميلادي!! وهذه واقعة غريبة وحادثة عجيبة، فهل يُترك التاريخ الهجري الذي أجمع عليه الصحابة والسلف والخلف ويُؤخذ بغيره، والمسلمون اليوم مجتمعة كلمتهم على ترك التاريخ الهجري إلا في

(١) «الشماريخ»: ١٤.

المملكة العربية السعودية، وأصبح أكثر المسلمين لا يعرف في أي شهر قمري هو، وإذا قيل له جمادى الأولى، أو رجب، أو ذو القعدة فكأنما هي ألفاظ غريبة يسمعها لأول مرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فينبغي أن نرجع اليوم إلى الأخذ بالتاريخ الهجري، فهو عنوان من عناوين عزتنا وكرامتنا، والله المستعان.



المطلب الثالث
الحاجة لعلم التاريخ

هناك حاجة ماسة لعلم التاريخ؛ إذ لا يكاد يستغني عنه أحد، والحاجات متنوعة بين حاجات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية معرفية، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أ. الحاجة الدينية:

ويتمثل هذا في معرفة تاريخ الأقوام الذين جاءوا قبل بعثة النبي ﷺ وموقفهم من الإسلام[١]، ثم معرفة تاريخ الإسلام الخاص ببعثة النبي ﷺ والمعبر عنه بالسيرة النبوية المشرفة المطهرة، وما فيها من تفصيلات ودقائق لها أثرها الكبير في عدة علوم دينية وُضعت بعد ذلك.

وكذلك يبين التاريخ أسباب ظهور الفرق والمذاهب التي كان لها أثر كبير جدًّا على مسيرة الأمة منذ بداياتها الأولى.

وكذلك يُظهر التاريخ بجلاء المعركة بين الحق والباطل، وكيف انتصر الحق وعلا وعزّ، والمسلمون اليوم في معركتهم مع الباطل بحاجة ماسة إلى معرفة تاريخ ذلك الصراع الطويل.

---

(١) سيأتي تفصيل قريب -إن شاء الله تعالى- لمسألة امتداد الإسلام في عمق التاريخ لآدم عليه الصلاة والسلام.

ب. الحاجة الدعوية:

إن في التاريخ الطويل الممتد في أعماق الزمن أخبارًا كثيرة وتفصيلات جليلةً لعلماءَ وقادة وأبطال وزهاد وعُبّاد وشجعان ورؤساء، وهذه الأخبار وتلك التفصيلات يحتاج إليها الدعاة في زماننا هذا من أجل تربية الناشئة عليها وأخذهم بها، واستقاء العبر والعظات منها، وما أحسن الدعوة إلى الله -تعالى- بالتعريف ببعض الأحداث التاريخية المهمة لعظيم وقعها وكبير أثرها[١].

ج. الحاجة السياسية:

وتتمثل في الآتي:

١) معرفة مسيرة الأمة الإسلامية وعلاقاتها بغيرها من الإمبراطوريات والأمم، وهذا هو الذي يندرج تحت علم السياسة الشرعية.

٢) الأحداث التي صاحبت قضية الإمامة الكبرى وموقف أهل السنة وأهل البدع منها، وقد ترك كل ذلك أثرًا عظيمًا على مسيرة التاريخ الإسلامي.

٣) بيان العصبيات القَبَلية التي كان لها أثر مدمر على مسيرة الأمة السياسية في بعض مددها، وأدى ذلك إلى هدم دول وإقامة أخرى.

---

(١) سيأتي مزيد لهذا الأثر في الكتاب الثالث من هذه السلسلة: «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني».

٤) معرفة مسيرة الحكام الذين حكموا البلاد الإسلامية في رقعتها الممتدة إلى تخوم الصين، ومدى التزام هؤلاء الحكام بالإسلام على مدار التاريخ الإسلامي في الماضي والوسيط والحديث، وهذا مفيد للمسلمين اليوم الساعين إلى إعادة مجد الإسلام وعزه وسيادته من جديد؛ إذ إنهم في تعرفهم على تجارب أولئك الحكام سيستفيدون من مزاياها، ويتجنبون نقائصها، وفي الوقت نفسه سينفون الشبهات الخاطئة والأخبار الكاذبة حول مسيرة أولئك الحكام.

٥) هناك محاولات حثيثة اليوم في بعض الجهات العلمية والمعرفية لإحياء النظام السياسي الإسلامي واستبداله بالنظم الديمقراطية الحديثة، وفي التاريخ على امتداده الطويل معين ثَرٌّ وتجارب غزيرة مفيدة تعين على وضع أسس هذا النظام السياسي الإسلامي الذي انتظره المسلمون طويلًا ليكون بديلًا لهذه النظم السياسية الغربية الحديثة الحاكمة في عالمنا اليوم.

د. الحاجة المعرفية:

إن علم التاريخ يشبع حاجتنا لمعرفة أحداث مهمة ومؤثرة، قال الأستاذ شاكر مصطفى[1] -رحمه الله تعالى-:

---

(١) مؤرخ، أديب، ولد بدمشق سنة ١٣٤٠/ ١٩٢١، وتخرج في مدرستها التجهيزية وفي دار المعلمين. شارك في الحركة الوطنية وساعد الثوار ضد الفرنسيين وتعرض لأذاهم، نال إجازة التاريخ من مصر والدكتوراه من سويسرا. وأجاد الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والبرتغالية، وعين في وظائف في السلك التعليمي والسياسي، وصار سفيرًا

«مهما بالغنا في تقصي العوامل النفعية أو الدينية وراء ظهور التاريخ، فإنا لا نستطيع أن نُغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضًا بين تلك العوامل، الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطلاع، وهي بدورها حاجة فكرية إنسانية لا تغيب عن أي عمل علمي، ونستطيع أن نرى في أعمال الكثير من المؤرخين والإخباريين الأوائل ما يكشف وجودها الواضح، كانت بالنسبة إلى الكثيرين منهم كالسوط يلاحقهم ويدفعهم إلى السؤال المتكرر للناس وإلى زيارة أماكن الأحداث، والسفر في تقصي الأخبار... يقول أبو شامة[1]:

«ولم يزل الصحابة والتابعون من بعدهم يتفاوضون في حديث مَن مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويتطلبون الآثار والأخبار، وذلك بَيِّن من أفعالهم لمن اطّلع على أحوالهم»[2].

وهناك حاجات عديدة أخرى لعلم التاريخ ستتضح -إن شاء الله تعالى- في المباحث القادمة.

في كولومبيا والبرازيل، ثم صار وزيرًا للإعلام، ثم انتقل إلى الكويت وعُين في وظائف عليا فيها، له أكثر من خمسين كتابًا. توفي بدمشق سنة ١٤١٨/ ١٩٩٧. انظر «إتمام الأعلام»: ١١٩، ١٢٠.

(١) الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المقرئ النحوي. الملقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر. له مصنفات عديدة مفيدة، وكان متواضعًا، محبًّا للعزلة والانفراد. قتلته الباطنية سنة ٦٦٥ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/١١٣-١١٦.

(٢) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦٢، وقد نقل من كتاب أبي شامة «الروضتين»: ١/٢.

المطلب الرابع:
فوائد قراءة التاريخ

إن لقراءة التاريخ فوائد عديدة، أوجزها في الآتي:

أ) الاعتبار والاتعاظ بحوادث التاريخ، والاستفادة منها في تصحيح المسيرة والتخطيط للمستقبل، فكم من حادثة مرت في التاريخ يحتاج المسلمون اليوم إلى فهمها وإدراك تعلقها بأحداث العصر؛ فالحروب الصليبية تتكرر اليوم عسكريًّا في أفغانستان والعراق وباكستان ومالي، وتتكرر إعلاميًّا وماديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا.

وتخاذل الحكام في الماضي يتكرر اليوم.

وانتفاضة الشعوب في وجه الطغيان في الماضي تعيد نفسها اليوم، وهكذا.

قال الأستاذ المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله:

«من الواجب الاعتراف بأن من وظائف التاريخ العبرة؛ حتى لا يكرر الإنسان -الشعب- الأمة نفس الخطأ، وقد اتهم بعض المستشرقين العرب بأنهم أمة لا تعتبر بالتاريخ، فتجارب التاريخ وأحداثه يهملها العرب ولا يدرسونها، ولا نستفيد منها الأمة، وهكذا فالأحداث التاريخية عند الأمة

العربية[١] دائمًا في طور الإنشاء...»[٢].

ب) الاستفادة من حياة العظماء والقدوات، ومحاولة التأسي بها وعرضها على الناشئة بمختلف وسائل العرض[٣]، حتى يُقطع الطريق على من يريد نَصْب القدوات السيئة الفاسدة.

جـ) فهم السنن الربانية، إن لله - تعالى- في كونه سننًا لا بد من فهمها وإدراكها، وذلك حتى يُحسن الناس الاستفادة منها والتعامل معها، «كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من المنهج الذي سار عليه أنبياؤه ورسله»[٤]، وهذه السنن مثل: الابتلاء، استحقاق المؤمنين لنصر الله تعالى، زوال الأمم بالترف والفساد، سوء عاقبة المكذبين والظالمين[٥].

د) إخراج كنوز التاريخ والاستفادة منها:

وهذه الاستفادة متنوعة ومتعددة، فمن ذلك:

---

(١) هكذا جاءت، والأولى: الشعوب العربية فليس هناك إلا الأمة الإسلامية.

(٢) «حوارات»: ١٩١،١٩٢.

(٣) وسيأتي تفصيل لهذا الأمر في رسالة قادمة بعنوان: «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني»

(٤) «تفسير التاريخ» لعماد الدين خليل: ١٠٩ نقلته من «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٨.

(٥) انظر تفصيل ذلك في «منهج كتابة التاريخ الإسلامي»: ٥٧ وما بعده.

١. الاستفادة الإعلامية:

إن في التاريخ كنوزًا ثمينة يمكن إخراجها والاستفادة منها إعلاميًّا، فالقنوات الفضائية تتسابق على عرض المسلسلات التاريخية، وفي مادة كثير منها ضعف وتشويه، فإذا أُحسن استخراج كنوز التاريخ وأُحسن عرضها إعلاميًا فسوف يكون لها أعظم الآثار في تربية المجتمع وتقويمه، وتعريفه بعظمة تاريخه.

٢. الاستفادة في تحريك الشعوب لتحقيق الأهداف العليا:

ومثال هذا تحريك الشعوب للجهاد في سبيل الله -تعالى- فيؤخذ من أحداث التاريخ وقائع انتصر فيها المسلمون وتُذكر للناس على وجه يبث فيهم الحماس والرغبة في الشهادة، وهذه الوقائع كثيرة مبثوثة في ثنايا التاريخ البعيد والمتوسط والقريب والمعاصر.

وكذلك يستفاد من هذه الوقائع في الكليات العسكرية في تعليم الضباط.

ومثال آخر هو ذكر القدوات الكبرى في التاريخ التي نجح أصحابها في الوصول إلى قمم عليا في جوانب السلوك البشري المتعددة، فعرض تاريخ مثل هؤلاء القدوات له تأثير بالغ القوة في تحريك النفوس للاقتداء بالنماذج المعروضة والوصول إلى شيء مما وصلت إليه[١].

هـ. زيادة الوعي:

إن من أكبر المشكلات التي تهدد المجتمعات الإسلامية هي قلة

---

(١) سيأتي تفصيل لهذا وتوسيع في الرسالة الثالثة من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» إن شاء الله تعالى.

الوعي بما يدور حولها في العالم، وقلة الوعي بأحداث التاريخ البعيد والمتوسط والقريب والمعاصر، فأكثر الناس عن هذا بمعزل، وهذا الجهل وقلة الوعي يورثهم مشكلات كثيرة، وليس أفضل في زيادة الوعي من عرض التاريخ عرضًا حسنًا سواء عن طريق وسائل الإعلام أو تدريسه على وجه حسن في المدارس والجامعات:

«ينفرد موضوع التاريخ بأهمية خاصة سواء في تدريسه بصورة علمية عميقة في الجامعة، أو في تقديمه على شكل دراسات مختارة مختصرة في المدارس، أو في عرضه على فئات المجتمع عبر وسائل الإعلام المتنوعة؛ وذلك لأن التاريخ لا يعرِّفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسْب، بل إنه عملية توجيه وتوعية متكاملة للجيل الجديد في المؤسسات التعليمية وخارجها»[1].

و) قضاء الوقت في قراءة النافع المفيد:

إن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى بدائل عن الغثاء السائد في وسائل الإعلام، فلو وُجِّه الكبار والناشئة إلى قراءة الموضوعات المهمة المشوقة في التاريخ فلربما كان ذلك بديلًا حسنًا، وقضاءً للوقت في الاطلاع على النافع المفيد، وفي الوقت نفسه إن في قراءة التاريخ متعة، وسُلُوًّا للنفس من أحزانها، ولذة تلتذّ بها.

وهناك فائدة أخرى ألا وهي تعويد الناس على القراءة، وهي مهمة شاقة قد يساعد على تحقيقها تحبيب المادة التاريخية للأجيال.

---

(١) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤٥.

المطلب الخامس:
القراءة بنية الاستفادة والتغيير

ينبغي التذكير بأن القراءة لا بد أن تكون بنية الاستفادة والتغيير؛ فهذا من أهم ما يُقرأ التاريخ من أجله؛ إذِ الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى الخروج من النفق المظلم الذي وضعت نفسها فيه منذ قرابة ثلاثة قرون، ولا مخرج لها بعد التوكل على الله -سبحانه- سوى المراجعة الدقيقة لتاريخها واستخراج ما فيه من عبر وعظاتٍ صالحة لدفع عملية التغيير قُدُمًا إلى الأمام.

وتاريخ الإسلام مليء بالفوائد الجليلة من عبر وعظات وردت في ثنايا أحداثه وفي سير الشخصيات العظيمة، فإذا قرأ المرء في كتب التاريخ فلتكن نيته الاستفادة من هذه الكنوز وتقويم حياته بها؛ فمن قرأ تاريخ بني أمية وما فيه من مزايا ونقائص، وما فيه من كرّ وفر، ومد وجزر قراءة واعية مركزة فسيستخرج عبرًا وعظات تفيده في تقويم مسيرته وربما مسيرة كثير ممن حوله، وكذلك الحال في سائر الدول من عباسية ومملوكية وعثمانية... إلخ.

ومن قرأ جهاد الدولة الزنكية والأيوبية للصليبيين فكأنما يطالع أخبار زماننا هذا ومغالبتنا لإخوان القردة في فلسطين، والصليبيين في العراق وغيرها.

ومن قرأ تفاصيل أعمال بني عثمان في البلقان وسائر دول أوربا الشرقية؛ فسيجد فيها من الأحداث المشابهة لأحداث زماننا قدرًا وافرًا، وسيعلم صدق المقولة: التاريخ يعيد نفسه.

وهكذا لو قرأ قارئ سير الرجال العظماء الذين امتلأت بأعمالهم بطون الكتب فسيتأثر بها كثيرًا، فهم ما بين عابد وزاهد وفارس وعالم، وغني شاكر، وفقير صابر، في جملة من الأعمال المسطورة والأقوال المنقولة التي يهذب بها قارئ التاريخ نفسه ويزكي بها عمله ويحسّن بها منطقه.

وما أحسن ما قاله ابن الأثير[١] -رحمه الله تعالى- مبينًا أثر الاطلاع على التاريخ في التغيير:

«إن الملوك ومَن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها أي -كتب التاريخ- من سيرة أهل الجور والعدوان... ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأُحْدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وفساد الأحوال استقبحوها، وأعرضوا عنها واطّرحوها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وإن بلادهم وممالكهم عُمرت، وأموالها دَرَّت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك...»[٢].

---

(١) الإمام علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجَزَريّ، عز الدين. توفي سنة ٦٣٠ رحمه الله تعالى. انظر «الاعلام»: ٤/٣٣١

(٢) «الكامل»: ١/٨.

ثم ذكر أن من فوائد قراءة التاريخ:

«ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره[١]، فيزداد بذلك عقلًا، ويصبح لأن يُقتدى به أهلًا»[٢].

ثم ذكر أن من فوائد قراءة التاريخ تهذيب النفس وإعدادها للدار الآخرة، فقال:

«إن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها... وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم فلم تُبقِ على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص...»[٣].

*** ومن الفوائد المهمة التي تعين العاملين والدعاة والمصلحين ما ذكره بقوله:**

«ومنها التخلق بالصبر والتأسي، وهما من محاسن الأخلاق؛ فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مُكرّم، ولا ملك مُعظم بل ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم...»[٤].

---

(١) وهذا الذي يُعرف بـ «التاريخ يعيد نفسه».
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٩.
(٤) المصدر السابق.

وقال الأستاذ شاكر مصطفى، رحمه الله تعالى:

«إن التجارب الإنسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخلقي، ومستودع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الإنسان مصباح هدى لا وراءه، باعتباره في المطاف الأخير تعبيرًا عن إرادة الله وهدايته، وهذه التجارب الإنسانية هي بدورها أساس في الثقافة الفكرية والسياسية...»(١).

- لذلك كله فإن القراءة في تلك الكتب تعود على الفرد والمجتمع بأحسن العوائد وأجمل الآثار، فمن قرأ التاريخ هذه القراءة استفاد تلك الاستفادة.

التاريخ الذي يدرسه الطلاب في المدارس والجامعات:

وبمقارنة تلك القراءة النافعة مع قراءة الطلاب التاريخ في المدارس والجامعات يظهر الفرق الكبير؛ فإن التاريخ يُقرأ في المدارس والجامعات بدون استخراج العبر والعظات، وبدون ربط للحاضر بالماضي، وبدون نظر في السنن التاريخية، إنما هو سرد وحفظ بلا فهم ولا حسن نظر، فتولد هذه القراءة الخاطئة مللًا شديدًا في نفوس الطلاب، وتصبح المادة عبئًا ثقيلًا على نفوس المعلمين والطلاب، وهذا هو على التحقيق السر في عدم استفادة الأجيال من التاريخ مع أن مئات الملايين من الطلاب في العالم الإسلامي يدرسونه في مراحل متعددة من حياتهم العلمية.

(١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦١.

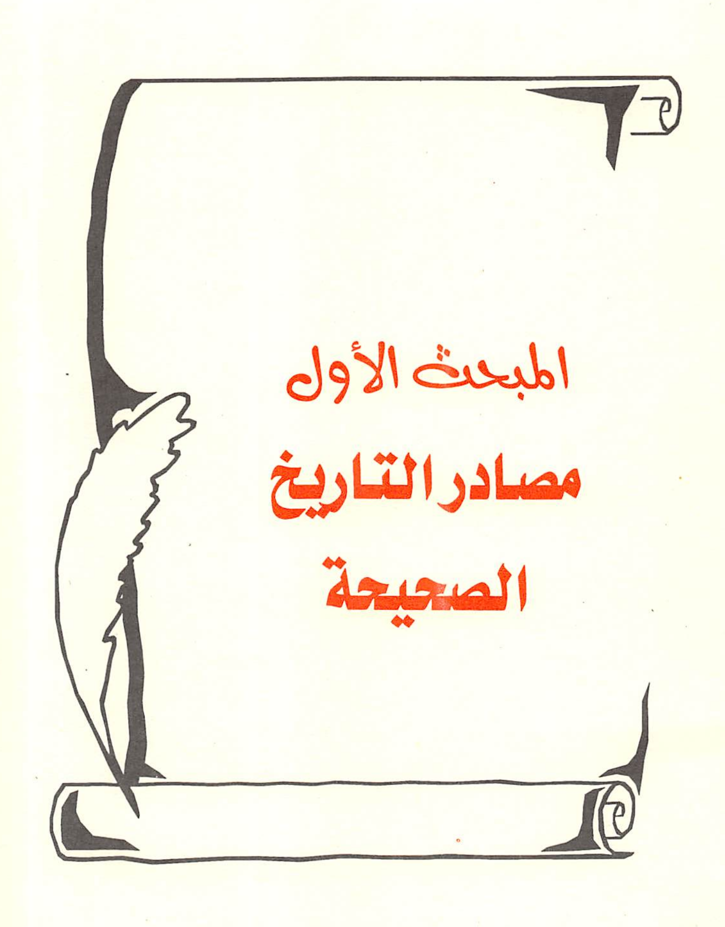
وأسوق لمن احتقر علم التاريخ فرآه من جملة العلوم التي لا فائدة فيها قول ابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى فقد قال:

«لقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ ويزدريها، ويُعرض عنها ويُلغيها، ظنًا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذا حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، ومَن رزقه الله طبعًا سليمًا، وهداه صراطًا مستقيمًا علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جَمّة غزيرة»[1].

* * *

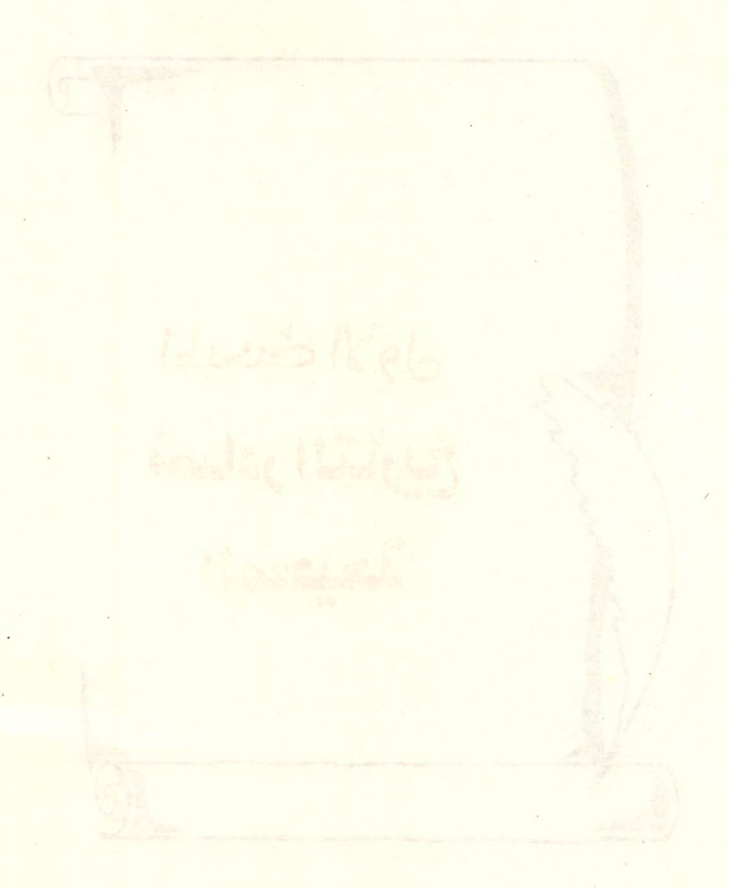
---

(١) «الكامل في التاريخ»: ١/ ٧، ٨.



المبحث الأول

مصادر التاريخ الصحيحة



المبحث الأول: مصادر التاريخ الصحيحة

إن لتاريخنا الإسلامي مصادرَ جليلة عظيمة لا بد من استقاء التاريخ منها، فلا يصح أن نستقي التاريخ من كتب الأدب[١] خاصة تلك التي أورد مصنفوها الكذب الصُراح[٢]، ولا من كتاب سَمَر وطرائف ولطائف، ولا من كتب أعدائنا من كنسيين ومستشرقين، ولا ممن تخبط في كتاباته التاريخية من غلاة القوميين واليساريين، ولا ممن أوغل في اتباع مناهج المستشرقين ممن يسمون المستغربين[٣]، إنما للتاريخ مصادر محددة يأتي على رأسها:

١- القرآن العظيم:

وهو أصح كتاب في تاريخ البشرية، وأعظم نص بين يدي البَرِيّة؛ وهو الذي حوى أحداثًا تاريخية جليلة بأقسامها الثلاثة: التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل[٤]، ووردت تلك الأحداث على أدق وأصح وجه في تاريخ البشرية، والقرآن قد امتلأ بهذه الأحداث التي تُقدر بأنها ثلثا القرآن تقريبًا؛ ففي القرآن قصص تاريخية كثيرة جدًّا، وفيه تأريخ لعدد من غزوات النبي ﷺ وفيه أخبار

(١) هناك بعض الاستثناءات سأذكرها في أواخر هذا المبحث، إن شاء الله تعالى.

(٢) مثل «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

(٣) سيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله- قريبًا.

(٤) هذا باعتبار زمن نزول القرآن.

الغيب المستقبل وهو تأريخ أيضًا، وكل ذلك جاء منضبطًا موجزًا محكمًا:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ويرى الدكتور عبدالحليم عويس[١] -رحمه الله تعالى- أن المسلمين قد قصروا في تأسيس علم التاريخ انطلاقًا من القرآن الكريم، فقال:

«والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين في رحلة حضارتهم قد وُفقوا في الانطلاق من القرآن الكريم مصدرِهم الأول في علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم «علوم القرآن»، كما أنهم قد اعتمدوا على القرآن وانطلقوا منه في علوم أخرى كعلوم اللغة العربية، بَيْد أنهم مع هذا الخط البياني المتقدم جدًا في علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم لم يكن خطهم البياني مساويًا أو قريبًا من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقههم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ...

إن الخط البياني في فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقي متخلفًا لا

(١) هو أحد أساتذة التاريخ المعاصرين المصريين، وله كتب عديدة نافعة في التاريخ الإسلامي، توفي - رحمه الله تعالى- سنة ١٤٣٣/٢٠١٢ في القاهرة.

يتساوى إطلاقًا مع التكثيف القرآني لقصص الأمم البائدة، ولا ينسجم مع هذه المساحة التي أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق ويمثله الأنبياء، وبين الباطل ويمثله أعداء الأنبياء»[١].

وقال في مكان آخر:

«إن ثمة حقيقةً أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خُصصت للمسألة التاريخية... وتبلغ هذه المسألة حدًا من الثقل والاتساع في القرآن الكريم بحيث إن جُلّ سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة إلى حدث، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ»[٢].

وقال الدكتور شاكر مصطفى -رحمه الله تعالى- مبينًا أهمية القصة القرآنية في مسار التاريخ الإسلامي:

«قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة[٣] -وإن تكن مجملة وتكتفي بالإشارة واللمحة- وتسمى بالقصص:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

---

(١) «فقه التاريخ»: ١١، ١٢.

(٢) المصدر السابق: ٤٤.

(٣) هكذا والصواب مهمة.

وبالرغم من أن الغرض منها هو الموعظة والاعتبار:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص فتحت بابًا من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ، ودخل كرديف ديني شرعي لعمليات التفسير القرآني، وإذا كان الكثير من الإسرائيليات قد دخلت عن هذا الطريق إلى التاريخ الإسلامي -كما دخله الكثير من الأخبار القَبَلية والأجنبية- فأهم من ذلك أن القرآن الكريم منح بذلك نظرة جديدة إلى الماضي كرسته كأساس فكري للعقيدة، ردت قيمته كجزء أساسي من المعرفة الإنسانية الموصلة إلى الله»[١].

٢- السنة المطهرة والسيرة المشرفة:

إن للسنة المطهرة والسيرة المشرفة أهمية عظيمة في التاريخ الإسلامي، وقد عبر عن ذلك الأستاذ شاكر مصطفى تعبيرًا حسنًا فقال:

«ظهور الرسول الأعظم ﷺ كان خطًّا فاصلًا في مسيرة التاريخ، هو خاتم الأنبياء، برزخٌ بين عالمين، عهد جديد نهائي للإنسانية، ولعل إدراك عمر بن الخطاب لهذه الحقيقة الإسلامية الكبرى هو الذي دفعه -بين عوامل أخرى- أولًا إلى وضع التأريخ، أي التقويم، وثانيًا إلى تدوين الدواوين والتأريخ بالهجرة لإبراز شخصية الرسول من جهة وتأكيد أهمية ظهور الإسلام، وتسجيل العطاء في الدواوين على أساس

---

(١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٦٠، وفي الجملة الأخيرة اضطراب لكن المعنى مفهوم.

المسلمين الأولين وأنسابهم وإثبات قيمهم في المنطلق الإنساني الجديد»[١].

وقد ورد في سنة رسول الله ﷺ الشريفة وسيرته المنيفة قدر عظيم من التاريخ الإسلامي بأقسامه الثلاثة: التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل، وكل ما ينبغي مراعاته أن يكون الحديث مقبولًا داخلًا تحت دائرة الاحتجاج، ولذلك ضوابط وطرائق لا تسع معرفتها غير المتخصصين، لكن لو قرأ المرء كتب الحديث المشهورة وكتب السيرة الموثوقة فهو في مأمن -غالبًا- من التردي في هاوية المكذوبات المفتريات[٢].

قال الدكتور عبدالحليم عويس رحمه الله تعالى:

«ثمةَ أحاديثُ نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية، واستشرفت آفاق المستقبل البعيد مما هو ضروري التناول عند المعالجة لموضوع التفسير الإسلامي للتاريخ؛ لأن التفسير الإسلامي يجب أن يُعطي للسنة الشريفة دورًا أساسيًا عند رسم كل أبعاد صورة التفسير الإسلامي للتاريخ»[٣].

وكل ما في صحيحي البخاري ومسلم فهو صحيح، يقرؤه القارئ

---

(١) المصدر السابق: ٥٩.

(٢) لمن أراد الاستزادة في هذا الموضوع فليقرأ مقدمة كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري، ورسالة «ضوابط منهجية في عرض السيرة النبوية» لكاتب هذه السطور.

(٣) «فقه التاريخ»: ٤٦.

وسيأتي الحديث -إن شاء الله تعالى- عن مسألة التفسير الإسلامي للتاريخ في الرسالة الثانية التي ستصدر بعد هذه بعنوان «إعداد المؤرخ الثقة».

وهو آمن من الروايات الضعيفة والمكذوبة، أما باقي كتب الصحاح والسنن ففيها الصحيح وفيها الضعيف، لكن كثيرًا منها قد حُقق وأصبح من الميسور على غير المختصين معرفة صحيحه من سقيمه، وشبكة المعلومات «الإنترنت» قد قَرّبت كثيرًا من البعيد حتى صار في متناول الأيدي، ولله الحمد والمنة.

أما كتب السيرة النبوية فليقرأ المرء منها سيرة ابن هشام[1]، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام ابن قيم الجوزية[2].

أما سيرة ابن هشام فهي من أوثق كتب السيرة، وله شرح جليل وهو «الرَّوْضُ الأُنُف والمشْرَع الرِّوَى في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى» لأبي القاسم السُهيليّ الأندلسي[3]، وقد قال الأستاذ محمود الطناحي:

---

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد. العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية لابن إسحاق. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٤٢٨ وما بعدها.

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله تعالى. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/٢١-٢٣.

(٣) عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد، الإمام الخيِّر أبو القاسم الخَثْعمي السُهيلي الأندلسي المالقي، الحافظ، صاحب المصنفات. كُف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة. وكان عالمًا بالعربية والقراءات، بارعًا في ذلك، وتصدر للإقراء والتدريس والحديث، وبَعُد صيته وجَلّ قدرُه، وله مصنفات جليلة. توفي سنة ٥٨١، رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١٨/١٧٠-١٧٢.

«وهو كتاب تاريخ وعربية... وإني لأنصح كل طالب علم باقتناء هذا الكتاب ومدارسته، وإدامة النظر فيه لما حواه من فوائدَ في مختلف علوم العربية...»(١).

وأما «زاد المعاد» فهو من إبداعات ابن القيم فهو كتاب نسجه على غير منوال سابق، وهو كتاب مبتكر جليل.

٣- كتب التاريخ الموثوقة:

وأعني بها التي صنفها أئمة كبار مثل الإمام الذهبي(٢) في «تاريخ الإسلام»، والحافظ ابن كثير(٣) في «البداية والنهاية»، والإمام ابن الأثير الجزري في «الكامل في التاريخ» وأمثال هؤلاء ممن عُرفت مناهجهم، ووُقف على طرائقهم، ونُقدت كتبهم فإذا هي مثل الذهب الإبريز الذي قد يشوبه بعض الشوائب لكنها قليلة ومحتملة، والوضع في كتبهم - أي الكذب - قليل بل نادر، وهم علماء شريعة موثوقون، يعرفون ما يوردونه، وإذا أوردوا شيئًا من الكذب والمبالغة فإنهم غالبًا ما ينقدون ذلك ويبينون.

---

(١) «الموجز في مراجع التراجم»: ٤٥.

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة، توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/ ١٠٠-١٢٣.

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي: عماد الدين، الحافظ الإمام. ولد سنة سبعمائة ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. توفي -رحمه الله تعالى- سنة ٧٧٤، «انظر الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

ـ وليُبتعد عن الكتب التي نحت منحى الرفض أو التشيع كتاريخ اليعقوبي[1]، أو الكتب التي كثرت فيها الشبهات والأغاليط مثل «تاريخ الأمم والرسل والملوك» للإمام ابن جرير الطبري[2]، على جودة علمه وعلو كعبه لكنه في كتابه هذا أورد الغثّ والسمين[3].

ـ ومن المصادر -أيضًا- للتاريخ الكتب التي أفردت الحديث عن تراجم الرجال وأحوالهم من جرح وتعديل، فقد ألفها أئمة كبار، وفيها جملة من الأحداث التاريخية، وهذه الكتب كثيرة وشاملة ومتنوعة، وسأفردها بالحديث في رسالة قادمة -إن شاء الله تعالى- لكن أمثل لها الآن بكتاب تهذيب الكمال للحافظ المزي[4]، و«سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي.

---

(١) هو أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي. مؤرخ جغرافي، كثير الأسفار، من أهل بغداد. كان جده من موالي المنصور العباسي الخليفة. رحل إلى المغرب، وأرمينيا، ودخل الهند، وبلادًا غير ذلك، وصنف عددًا من الكتب. توفي آخر القرن الثالث بعد سنة ٢٩٢. انظر ترجمته في «الأعلام»: ١/ ٩٥.

(٢) هو الإمام المفسر المشهور محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام العالم المجتهد، ولد سنة ٢٢٤ بآمل طبرستان. كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف، وكان من كبار أئمة الاجتهاد. استقر ببغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٦٧-٢٨٢.

(٣) سيأتي تفصيل لمناهج المؤرخين في رسالة قادمة في هذه السلسلة، إن شاء الله تعالى.

(٤) هو: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الحلبي الشافعي، مؤلف تهذيب الكمال في أسماء الرجال. ولقب المزي نسبة إلى المزة في دمشق التي استقر ونشأ بها. ولد بحلب سنة ٦٥٤، مهر في اللغة، ثم في الحديث ومعرفة رجاله، توفي في دمشق ١٢ صفر سنة ٧٤٢. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر، «وتذكرة الحفاظ» للذهبي، «والأعلام»: للزركلي: ٨/ ٢٣٦.

٤- بعض كتب الجغرافيا:

هناك بعض كتب الجغرافيا جمعت على وجه جامع بين مادة الجغرافيا ومادة التاريخ، فيجد القارئ فيها أحداثًا وتفاصيل ودقائق تاريخية لا يكاد يجدها في مكان آخر، وأحسن مثال على ذلك: «معجم البلدان» لياقوت الحموي[١] -رحمه الله تعالى- فقد سار في الأرض طويلًا، وسجل في كتابه ذلك أحوال البلاد السياسية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، ورجالها العظماء، إضافة إلى تسجيله جغرافية البلاد، وتنبع أهمية الكتاب من أن أكثر مادته مشاهدات رآها ياقوت بنفسه وسجلها في كتابه، وهو ثقة فيما ينقله، بعيد عن المبالغات الممجوجة التي كثرت في كتب الذين ارتحلوا في البلاد فأوردوا بعض الحوادث التي هي أشبه بالأساطير منها بالحقائق.

٥- كتب الرحلات:

من المصادر المهمة للتاريخ كتب الرحلات، وهي الكتب التي سَطّر فيها أصحابها رحلاتهم إلى أماكن مختلفة، وعلى رأسها الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة المشرفة المنورة النبوية لأداء الحج والزيارة، وكذلك الرحلات التي قام بها العلماء والأدباء إلى أقطار متعددة، أما المغاربة إذا حجوا فإنهم يمرون بعدة دول وعلى رأسها مصر، وأما المشارقة فكانوا يرتحلون إلى الشام ومصر والعراق واليمن،

---

(١) هو الأديب الأوحد، شهاب الدين الرومي، مولى عسكر الحموي، السفّار، النحوي، الأخباري، المؤرخ، ذو التآليف الحاكمة بالبلاغة وسعة العلم. أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة، وكان ذكيًا، شاعرًا متفننًا، جيد الإنشاء. توفي سنة ٦٢٦ عن نيف وخمسين سنة رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٣١٢، ٣١٣.

وقَلّ منهم مَن يرتحل إلى المغرب، وهذه الكتب كثيرة وعديدة وتحوي مادة تاريخية ثرية جدًا ومهمة إلى الغاية، وسبب أهميتها عائد إلى أن هذه المادة منقولة بالمشاهدة أو السماع، وناقليها علماء موثوقون -في الغالب- وأدباء عقلاء ضابطون.

وربما يجد الباحث مادة تاريخية في تلك الكتب لا توجد في غيرها من كتب التاريخ.

ويمتد تاريخ هذه الرحلات التي وصلتنا من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي إلى العشرين، وهناك رحلات قليلة جدًّا وصلتنا قبل هذا التاريخ.

ومن أمثال هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة[١]، ورحلة ابن جبير الأندلسي[٢]، ورحلة الورثيلاني الجزائري[٣]، ورحلة خير الدين

---

(١) محمد بن عبدالله بن محمد اللُّواتي الطَنجيّ، أبو عبدالله ابن بطوطة. ولد في طنجة سنة ٧٠٣. رحل إلى المشرق سنة ٧٢٥ وتوغل حتى بلغ الصين، وتولى القضاء بالهند سنوات. بقي في رحلته ٢٧ سنة. توفي في مراكش سنة ٧٧٩ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ١٠٠، و«الأعلام»: ٦/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانيّ الأندلسيّ الشاطبيّ البَلَنسيّ. رحالة أديب. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ ونزل شاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وأحب الترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات؛ إحداها سنة ٥٧٨-٥٨١ وهي التي ألف فيها رحلته. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤ رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٥/ ٣٢٠.

(٣) الحسين بن محمد السعيد الوَرثيلانيّ نسبة إلى بني ورثيلان- قبيلة جزائرية – ولد سنة ١١٢٥. مؤرخ، فقيه مالكيّ، له اشتغال بالتصوف. حج فأخذ من علماء مصر والحجاز. له بعض المصنفات. توفي سنة ١١٩٣ رحمه الله تعالى. انظر: «الاعلام»: ٢/ ٢٥٧.

الزركلي[١] المسماة: «ما رأيت وما سمعت»، ورحلة شكيب أرسلان[٢]: «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»، ورحلة رشيد رضا إلى مكة المكرمة[٣]، ففي كل هذه الرحلات -وغيرها كثير- مادة تاريخية مهمة

---

(١) العلامة أبو الغيث خير الدين بن محمود بن محمد الزركليُّ الدمشقيُّ. وُلِدَ في بيروتَ سنة ١٣١٠ هـ، ونشأ وترعرعَ في دمشقَ، ودرس فيها مراحل دراساته الأولية، ثم عاد إلى بيروت تلميذًا فأستاذًا، وجرتْ له فيما بعدُ من عمره فصول توالت عليه في إثرها المحن والكروب، وحُكم عليه في دمشقَ غيابيًا بالإعدام إثرَ واقعة حدثت، وكان حُكِم الإعدام صادرًا من الفرنسيين، وفر إلى فلسطين فمصر فالحجاز فمكث فيها مدة عند الشريف حسين، ثم دخل الزركليُّ في حكم الملك عبد العزيز، ولتقدّمه وفضله قلّدهُ الملكُ عدّة مناصبَ في الحكومة السعودية، كان آخرها سفيرًا في دولةِ المغربِ.
توفّيَ - رحمهُ اللهُ - في سنةِ ١٣٩٦/١٩٧٦ هـ في مدينةِ القاهرةِ، ولهُ ٨٦ سنة، قضى أكثرها باحثًا ومفكّرًا وكاتبًا، له عدة كتب مهمة، ولهُ ديوانُ شعر مطبوعٌ كذلكَ.
والزّركليُّ: بكسر الزاي المُشدّدةِ وبعدها راءٌ مكسورة، وهي قبيلة أو أسرة كرديّة.
انظر ترجمته في سلسلة «علماء ومفكرون معاصرون في كتاب مستقل بعنوان »خير الدين الزركلي، المؤرخ الأديب» لأحمد العلاونة.

(٢) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولد في الشويفات بلبنان سنة ١٢٨٦. كان عالمًا بالأدب والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. انتخب نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني. وسكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا وسكن فيها ٢٥ عاما ثم عاد إلى بيروت وتوفي بها سنة ١٣٦٦ /١٩٤٦ رحمه الله تعالى. له مصنفات كثيرة ورسائل خاصة عددها يقدر بعشرات الآلاف، وقد كان من أشد المتحمسين للدولة العثمانية ثم بعد ذلك للقضايا العربية. انظر: «الأعلام»: ١٧٣/٣ - ١٧٥. وقد صح عندي أنه تسنن بعد أن كان درزيًّا، رحمه الله تعالى.

(٣) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القَلموني الأصل الحسينيّ، صاحب مجلة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ولد في القلمون -من لبنان- سنة ١٢٨٢، وتعلم فيها وفي طرابلسْ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة «المنار»، وصار مرجع الفتيا في التوفيق بين الشريعة والأوضاع =

يندر أن تجدها في غيرها من كتب التواريخ.

وأزعم - والله تعالى أعلم- أن كتب الرحلات لم يستفد منها حتى الآن الاستفادة الجيدة، وفيها مادة تاريخية، ودعوية، وتربوية، وإيمانية، فعسى أن يلتفت إليها الباحثون.

٦- بعض كتب الأدب:

الأصل أن كتب الأدب هي كتب سمر وطرائف ولطائف، ولا يصح أن يُستقى منها التاريخ؛ وذلك لأن مصنفوها سلكوا فيها طريقًا لا يناسبه التوثيق والتدقيق، ثم إن بعض المصنفين لتلك الكتب هم من غير الثقات، كما ذكرت ذلك في بداية المبحث، وتصلح بعض كتب الأدب تلك لبيان الحالة الاجتماعية لمجتمع ما في زمن ما.

لكن هناك بعض كتب الأدب جمعت بين إيرادها القطع الأدبية والحوادث التاريخية فتلك ينظر إلى مصنفيها، فإن كانوا ثقات أُخذ منها المادة التاريخية، ومن أمثل الأمثلة وأحسنها كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر حال وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» ومؤلفه هو المقّري التلمساني[1]،

=العصرية الجديدة. ارتحل مرارًا، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث حتى توفي سنة ١٣٥٤/١٩٣٤ بمصر رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/١٢٦.

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد المَقّري، أبوالعباس التلمساني المؤرخ، الأديب الحافظ. ولد في تلمسان سنة ٩٨٦، ونشأ بها، ثم انتقل إلى فاس فكان خطيبها وقاضيها، ثم انتقل إلى القاهرة، سنة ١٠٢٧، ودخل الشام والحجاز. و المَقّري نسبة إلى مَقّرة قرية من قرى تلمسان. له عدة كتب جليلة. توفي - رحمه الله تعالى- بمصر سنة ١٠٤١. انظر «الأعلام»: ١/٢٣٧.

فهو كتاب أدبي من الطراز الأول لكن لا يُستغنى عنه في تاريخ الأندلس أبدًا، وقد أورد أحداثًا استقلّ بها لم تُذكر في مكان آخر، خاصة أن أكثر الكتب الأندلسية قد أحرقها النصارى في حروبهم مع المسلمين واستيلائهم على المدن.

- وفي كتب التاريخ -خاصة الأولى منها- استُقيت أحداث تاريخية من الشعر الذي كان ديوان العرب، ومستودع أخبارها وأحداثها، ولذلك عمد المؤرخون الأوائل إلى الاستفادة منه في انتزاع بعض دقائق وتفصيلات تاريخية لا تكاد توجد في غير تلك الأبيات الشعرية.

٨- كتب المذكرات أو الذكريات:

وهذه كتب مهمة لكن المسلمين لم يعرفوا هذا النوع من التأليف -على الوجه المعروف من الذكريات- إلا في القرن الماضي والذي قبله: الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/التاسع عشر والعشرين الميلاديين، لكن ورد ما يمكن عده قسمًا من الذكريات في كتب الرحلات آنفة الذكر.

وكتب الذكريات هذه تحوي مادة تاريخية لا بأس بها قائمة على المشاهدة والسماع، ودرجة أهميتها التاريخية منبعثة من جودة كُتاب هذه الذكريات، كأن يكونوا ضابطين لما يروونه، غير متهمين بالكذب، معروفين بالاعتدال وقلة المبالغة إلى آخر ما يمكن أن يقوي كتب الذكريات تلك ويجعلها مصدرًا من مصادر التاريخ، لكن هذه الكتب هي مصدر ثانوي من مصادر التاريخ وليست مصدرًا أساسًا على أن بعضها فيه من المعلومات التاريخية ما لا يمكن أن تجده في أي كتاب آخر:

«بالرغم من أن الميول الذاتية تسيطر عادة على المذكرات الشخصية غير أنها تعطينا في بعض الأحيان معلومات فريدة وهامة، وفي كل الأحوال لا يمكن الاستغناء عنها في كتابة التاريخ؛ ذلك لأن بعض الترجمات الذاتية تعتبر مساهمة جادة في التاريخ»[1].

وقد كثر التصنيف لهذه الكتب في النصف الآخر من القرن الماضي وفي هذا القرن، ومن الذكريات المهمة:

ذكريات الشيخ علي الطنطاوي[2]، وذكريات الأستاذ الإمام حسن البنا[3] واسمها: «مذكرات الدعوة والداعية»، وذكريات محمد كرد علي[4]

---

(١) «عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ»: ٢٦.

(٢) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلًا. كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله مئات الأحاديث في وسائل الإعلام، وله كذلك مئات المقالات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٠هـ.

(٣) حسن بن أحمد بن عبدالرحمن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. ولد سنة ١٣٢٤/١٩٠٦ في المحمودية - قرب الإسكندرية - ودرس بدار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتدريس وتنقّل في بعض البلاد متعرفًا إلى أهلها مختبرًا طباعهم وعاداتهم. أنشأ دعوته في الإسماعيلية، ثم انتقل إلى القاهرة. نظم أمر أتباعه، وشاركوا في حرب فلسطين مجاهدين، ثم اصطدمت بهم الدوائر الاستخباراتية العالمية فسجنتهم وقتل الإمام سنة ١٣٦٨/١٩٤٩ رحمه الله تعالى في حادثة غادرة لئيمة. له بعض الرسائل النافعة وكثير من الآثار الباقية. وانظر «الأعلام»: ٢/١٨٣-١٨٤.

(٤) محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كُرْد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد سنة ١٢٩٣ بدمشق، وأصله من أكراد السليمانية -من أعمال الموصل- وتعلّم في المدرسة الرشدية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة. وأحسن التركية والفرنسية =

- على ما فيها[1].

وقريب من كتب المذكرات كتب اليوميات، وهي التي كتبها أصحابها ليؤرخوا أحداثًا معينة أو عامة يومًا بيوم، وكتب اليوميات هذه فيها تفاصيل ودقائق أكثر من كتب الذكريات، وذلك لأن كتب الذكريات تكتب عادة بعد وقوع الأحداث بزمن طويل، ودقائق الأخبار وتفصيلات الوقائع قد لا تبقى في الذاكرة مدة طويلة، لكن اليوميات تكتب عادة يومًا بيوم، أو في مدة قصيرة متتابعة فتصبح أشبه باليوميات منها بالمذكرات أو الذكريات، وتشتمل على تفصيلات ودقائق كثيرة.

ومن أهم هذه اليوميات كتاب «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» للمؤرخ المصري الجبرتي، فكتابه هذا كتبه لتسطير وقائع حملة نابليون على مصر، وكان أشبه باليوميات، فقد سطر فيه كثيرًا من التفصيلات والدقائق للحملة.

٨- الرسائل الشخصية:

كثر في القرن الماضي والذي قبله الرسائل المتبادلة بين العلماء والأدباء

=وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والجرائد. هاجر إلى مصر وبقي فيها سنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبهم عشرة وأحفظهم ودًا. توفي بدمشق سنة ١٣٧٢ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/٢٠٢، ٢٠٣.

(١) انظر تقويمي لها في كتاب «حال بلاد الشام في القرن الرابع عشر الهجري» فقد اختصرت المذكرات وكتابًا له آخر في ذلك الكتاب.

والمؤرخين وذلك لأن البريد أصبح أسهل وأسرع من ذي قبل، وتلك الرسائل لها أهمية بالغة لاحتوائها على تفصيلات ودقائق قد لا توجد في أي مكان آخر.

ثم إن تلك الرسائل تذكر الوقائع والأخبار بلسان أصحابها، فإذا كانوا من الثقات المعروفين بالضبط والأمانة فإن لتلك الأخبار مكانة جليلة وأهمية بالغة.

ومن هذه الرسائل: الرسائل المتبادلة بين الأستاذ محمد بهجت البيطار(١) والشيخ جمال الدين القاسمي(٢).

والرسائل المتبادلة بين المهتدية الأمريكية مريم جميلة(٣) والشيخ أبي الأعلى المودودي(٤)، رحمه الله تعالى.

---

(١) ولد سنة ١٣١١، ودرس في دمشق في مدارس وعلى يد مشايخ، وتولى عدة وظائف منها عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق وبغداد، ودرّس في مدارس في دمشق والحجاز، وصار عضوًا في المحكمة الشرعية الكبرى بمكة، ونائبًا لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشًا للعلوم الدينية، ومدرسًا للتوحيد، ثم عاد إلى دمشق ومنها إلى بيروت، ثم عاد إلى الحجاز سنة ١٣٦٨ وأسس دار التوحيد بالطائف، وكان له رحلات إلى بلدان متعددة. توفي سنة ١٣٩٦ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته مفصلة في مجلة «حضارة الإسلام»: العدد الرابع: السنة ١٣٩٦.

(٢) هو جمال الدين محمد بن سعيد بن قاسم القاسمي، عالم مشارك في أنواع العلوم. ولد بدمشق ١٢٨٣/١٨٦٦ ونشأ وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة وعاد إلى دمشق. له عدة مصنفات، توفي بدمشق سنة ١٣٣٢/ ١٩١٤. انظر «الأعلام»:٢/١٣٥.

(٣) هي مارجريت ماركوس قبل إسلامها، يهودية أمريكية من أصل ألماني. ولدت في نيويورك سنة ١٣٥٣/١٩٣٤ أسلمت في قصة جليلة سنة ١٣٨١/١٩٦١، وتوفيت رحمها الله تعالى - بلاهور ٢٠١٢ سنة ١٤٣٤.

(٤) هو أحد كبار دعاة باكستان، وأنشأ الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية. وحاز جائزة الملك فيصل العالمية. توفي - رحمه الله تعالى- سنة ١٣٩٩/١٩٧٩ ودفن في لاهور بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال. انظر «تتمة الأعلام»:١/٧٣.

وهناك بعض أنواع أخرى يمكن أن يوجد فيها مواد تاريخية لكن على قلة أو ندرة مثل الأثبات[١]، والبرامج[٢]،والمعاجم[٣].

٩- الوثائق الحكومية:

دأبت الحكومات الاستخرابية «الاستعمارية» في القرن الماضي والذي قبله على الاحتفاظ بالوثائق المعنية بالعلاقات بين الدول والأحداث التي جرت في البلاد التي احتلتها، وهي في الأغلب رسائل متبادلة بين تلك الحكومات

---

(١) الأثبات جمع ثَبت، وهي كما قال اللكنوي – رحمه الله تعالى- « الفهرسة التي يجمع فيها المحدث مروياته وأشياخه، كأنه أخذ من الحجة؛ لأن أسانيده وشيوخه حجة له...

وقيل فيه أيضًا: الكتاب الذي يجمع فيه المحدث مشيخته ويثبت فيه أسانيده ومروياته وقراءته على أشياخه المصنفات ونحو ذلك ، فهو اصطلاح حادث للمحدثين» : انظر «لسان المحدثين»: المجلد الثالث.

(٢) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الثاني:

استعمل المتأخرون -ولا سيما الأندلسيون – كذا - منهم لفظ برنامج على معنيين :

أحدهما: الكتاب الحاوي لأسماء الكتب، والتقاييد والرسائل المقروءة، أو خلاصات المسائل ورؤوس النقاط...

وثانيهما: كتاب يضم أسماء المشايخ، وأسماء التلاميذ المستفاد منهم أيضًا، فلفظة البرنامج إذن مرادفة عند المحدثين للفهرس...

وهذه الكلمة ليست عربية بل هي معربة عن «نامه» الفارسية التي من معانيها عندهم: الورقة الجامعة للحساب، وفيها بعض معنى الفهرسة

والمقصود هنا المعنى الثاني للبرنامج، وإن كان المعنى الأول يراد أحيانًا.

(٣) قال صاحب «لسان المحدثين» في الجزء الخامس:

«الكتاب الذي يترجم فيه رجال أحد الكتب مرتبين على الحروف».

وللمعجم معانٍ أخرى لكن هذا المعنى هو ما أردته في هذا الكتاب.

وقد يسمى هذا النوع من الكتب «المشيخة» وجاء في «لسان المحدثين»: قال الحافظ ابن حجر في «المعجم المفهرس»: ١٩٥: فصل في المشيخات : وهي في معنى المعاجم إلا أن المعاجم يرتب المشايخ فيها على حروف المعجم في أسمائهم بخلاف المشيخات.

وسفاراتها أو «قنصلياتها»، وفي تلك الوثائق تفصيلات دقيقة جدًّا عن أحوال البلاد ورجالها المؤثرين، وقد لا توجد تلك الأخبار في أي مكان آخر، وتختلف أهمية تلك الوثائق تبعًا لأهمية البلد ورجاله، ومن أشهر تلك الوثائق: الوثائق البريطانية، فقد كانت بريطانيا تحتل كثيرًا من بلاد العالم الإسلامي في القرنين الماضيين، وقد اختطت لنفسها سياسة معينة في إطلاع الجمهور على تلك الوثائق، حيث إنها تفرج عن مجموعات منها كل ٣٠ سنة، وبعضها كل خمسين سنة، والمطلع على تلك الوثائق يدرك أهميتها البالغة في تقويم الأحداث التي أصبحت تاريخًا لتلك البلاد سواء أكانت محتلة آنذاك أو حرة، وفيها دقائق في أحوال الرجال ونفسياتهم وطرائق تفكيرهم هي في غاية من الأهمية في وزن أعمالهم والحكم على مسيرتهم في الحياة.

١٠- الوصايا:

هناك عظماء كثيرون، وأصحاب مراكز مهمة أثرت في أحداث التاريخ قد كتبوا وصاياهم قبل موتهم، وبعض تلك الوصايا فيه تفصيل دقيق لبعض الأحداث التي عاشها الموصي، لكنه لم يستطع ذكرها في حياته بسبب الخوف من شيء ما، أو لسبب آخر، فالاطلاع على تلك الوصايا قد يفيد في معرفة بعض التفاصيل التاريخية المفقودة في الزمن الذي عاشه الموصي، وبعض تلك الوصايا موجود.عند أهل الموصي وقد يسمحون بالاطلاع عليها، وبعضها الآخر موجود في المتاحف والمكتبات الوطنية أو العامة، أو مراكز البحوث والدراسات، فعلى الباحث التاريخي أن ينظر في تلك الوصايا إن احتاج إلى إكمال بعض الجوانب المهمة في دراسته التاريخية لحدث معين أو شخصية معينة.

١١- المشافهات:

هناك أشخاص كثيرون عاصروا أحداثًا مهمة للغاية، ولم تُكتب هذه الأحداث بعد على وجهها، أو أنها كتبت لكن على وجه مخالف لحقيقتها أو ينقصها التفصيلات والدقائق المهمة، وهؤلاء الأشخاص لا يستطيعون لسبب أو لآخر أن يدونوا ذكرياتهم حول تلك الأحداث، ففي مشافهتهم فوائد عديدة لا تخفى، لكن هناك شروطًا لهذه المشافهة حتى تصبح موثوقة وتصلح للاستشهاد التاريخي، منها:

أ) أن يكون المشافه ثقة أي عدلًا في سيرته، ضابطًا لأقواله، لم يُصبه خرف، أو خلط كثير، أو نسيان شديد مؤثر على سياق الخبر.

ب) ألا يأتي بأخبار ضخمة لم يسمع بها أحد من قبل فهذا يورث الشك في روايته، لكن له أن يأتي بتفاصيل ودقائق لم يسمع بها أحد لكنها مدرجة تحت الحدث الأصلي المعروف المنتشر خبره عند كثير من الناس.

ج) أن يكون قد عاصر الحدث بنفسه وشاهده، أو نقله بالسند الصحيح الموثق إلى غيره من الثقات.

وعلى كل حال فإنه يمكن التأكد من صحة بعض تلك المشافهات بالمقارنة بالروايات الأخرى للحدث نفسه، أو التتبع الزمني لتلك الروايات للتأكد من عدم اختلاط المشافَه.

تلك كانت أهم المصادر التي يُستقى منها التاريخ، والله أعلم.

وهناك بعض المصادر لكن لا يتيسر الاطلاع عليها لكل أحد، وذلك نحو

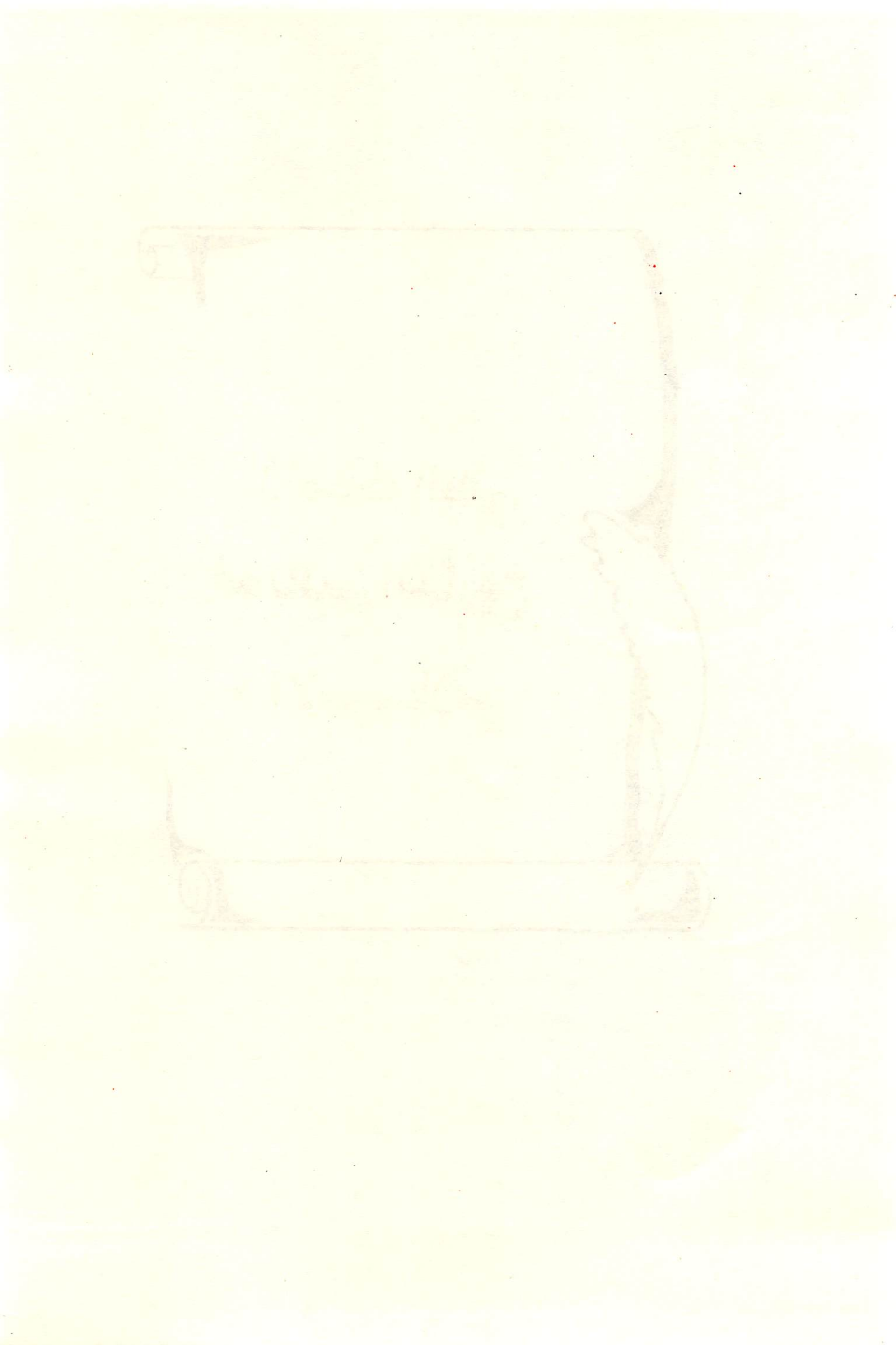
التحقيقات التي تقوم بها الشرطة، أو الاعترافات أمام النيابة والمحكمة، لكن هذه المعلومات قد تحتاج إلى توثيق من مصدر آخر محايد.

* * *



المبحث الثاني

خصائص التاريخ الإسلامي



المبحث الثاني: خصائص التاريخ الإسلامي



إن لكل أمة تاريخَها الذي تعتز به وتدرسه للأجيال، وتتناقله الألسن والدواوين، وتهفو إليه القلوب والأفئدة.

وإن أمة الإسلام ليست ببدع من الأمم في هذا الباب بل تاريخها عظيم وجليل لا يدانيه تاريخ أمة من الأمم الأخرى ولا يضارعه، فهو قد امتاز عن غيره بجملة خصائص وضعته في الصدارة بين تواريخ الأمم، فمن هذه الخصائص الجليلة:

أولاً: تاريخ موصول بالرسل والأنبياء:

ينبغي أن يعلم أن تاريخ هذه الأمة الإسلامية العظيمة لا يبدأ ببعثة أعظم الرسل محمد ﷺ إلا باعتبار التاريخ الخاص الذي يبدأ ببعثته ﷺ إنما يبدأ منذ بداية الرسالة والنبوة على هذه الأرض؛ إذ كل الأنبياء والرسل مسلمون جاءوا برسالة خالدة تداولها الأنبياء حتى وصلت إلى سيدهم وعظيمهم محمد ﷺ وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣]

وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى قاصًا حال إبراهيم عليه أفضل الصلوات والتسليم:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقال ﷺ لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقالت بلقيس فيما قصه الله تعالى علينا في كتابه العظيم:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال الحواريون فيما قصه الله -تعالى- علينا في كتابه الجليل:

﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فهو إذًا تاريخ موغل في القدم، تحفه الرسالات والرسل العظام الكرام، وهو ليس تاريخًا خاصًا بجنس أو شعب بل كل من أسلم لله - تعالى - على مدار التاريخ فهو من هذه الأمة المسلمة الراشدة، وهذا يرتقي بتاريخنا إلى الشمول والعالمية التي تحتاجها الحضارات التي تُبنى على أساس سليم.

وهذا هو الأمر الذي أغفله مؤرخو الغرب من المستشرقين وغيرهم، فهم لا يُرجعون تاريخ البشرية إلى أصل إلهيّ ولا يقرون بذلك، فهم «لا يرون في هذا الكون سوى المخلوقات المادية الملموسة، كالسماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر إلى آخره، أي أنه لا وجود - في تصورهم الذي انطلقوا منه لكتابة تاريخ البشرية - للملائكة أو الشياطين، ولا وجود للرسالات أو الرسل أو الوحي أو الكتب السماوية، أو البعث أو الحساب، أو الثواب أو

العقاب، أو الجنة أو النار، وأن الكون هكذا وجد، أوجد نفسه بنفسه...

أي أن الحكمة من خلق آدم وبنيه قد انتفت، والتكليف الرباني لآدم وذريته قد تبدد...

وكُتّاب التاريخ الذين تبنوا ذلك التفسير اللاديني لتاريخ البشرية حريصون على هدم الإسلام وكونه عقيدةً ونظامَ حياةٍ شامل: اقتصادي وسياسي وتثقيفي وتعليمي وجهادي، صالح لكل زمان ومكان، وبالتالي زعزعة ثقة بني البشر في رب الكون وملائكته وكتبه ورسله، مع تشويه تاريخ الأمة المسلمة -الواقع التطبيقي لذلك الدين- وتزييفه وبعثرته حتى لا تهتدي الأمة المسلمة إلى ذاتها وغايتها...

وتحقيقًا لهذا المنطلق فإن المشتغلين بالتاريخ من غير المسلمين ومَن سار على نهجهم قد تواصوا بوسائل منها:

التجاهل والتجهيل بالبداية الحقيقية للدين الإسلامي، وبالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسلمة... وذلك يعني في تصور هؤلاء المشتغلين بالتاريخ أن الدين الإسلامي لا وجود له قبل رسالة محمد ﷺ وهذا يعني -أيضًا- طبقًا لتصورهم المنحرف أن آدم لم يكن مسلمًا، وكذلك نوح ولوط وإبراهيم ويعقوب وسليمان وغيرهم من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين... وبذلك يعزلون تاريخ الأمة المسلمة التي سبقت رسالة محمد ﷺ عن بقية تاريخ الأمم المسلمة والتي تضرب بجذورها إلى عهد آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] والتي يمتد

تاريخها عبر آلاف السنين... وقد ترتب على تبني هذا المنطلق من قِبَل المستشرقين ومن سار على نهجهم فصل هذا الجزء العزيز الغالي الكبير والأساسي من تاريخ الإسلام وتاريخ الأمة المسلمة منذ أقدم الدهور بداية بآدم عليه السلام حتى قبيل بعثة محمد ﷺ وأطلقوا عليه اسم التاريخ القديم، تاريخ مصر القديمة، العراق القديم، الشرق القديم، بلاد الشام القديم وحولوه إلى تاريخ وثني جاهلي... بل أطلقوا على هذه الفترة عصور ما قبل التاريخ، والعصور الحجرية التي أثناءها لم يكن الإنسان الحيوان يعرف له ربًا ولا يعتنق دينًا، فنشأت لدى الإنسان عاطفة التدين من مشاهدة الحيوانات التي تخاف من القوى الخفية وتخاف البرق والرعد،فبدأ يتخذ لنفسه آلهة على قدر نضوجه الفكري، أي أن الدين من اختراع العقل البشريّ...

ويسير في نفس الاتجاه السالف الذكر علماء الآثار من المستشرقين الذين يحرصون على طمس أي قرينة أثرية أو ملامح تاريخية تؤكد أن الله - سبحانه وتعالى- قد فطر البشرية على الإسلام...

إذا قُدر للإنسان أن يرجع إلى الموسوعات التاريخية ليتعرف على تاريخ البشرية يجد أن كتابها قد تعرضوا لخلق الكون وكيفية حدوث ذلك وتعرضوا لخلق الإنسان وكيفية حدوث ذلك، وتعرضوا لتاريخ الأديان -ومنها الإسلام- والأساس الذي قامت عليه، ولكن تعرضهم لهذه الموضوعات لم يكن موفقًا بأي حال من الأحوال»[1].

---

(١) «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ» للأستاذ الدكتور جمال عبدالهادي المصري حفظه الله تعالى: ٦-١٠.

وقال الدكتور شاكر مصطفى -رحمه الله تعالى-:

«أعطت العقيدة الإسلامية تصورًا تاريخيًّا واضحًا للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة، وربطت بين المبتدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحًا صورة الآخرة، وحصلت ما بين الطرفين فترة عبور: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢][(١)].

وقال أيضًا:

«انتزع الإسلام العرب من الإطار القَبَلي ومن الجو الوثني، ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمُثُل الجاهلية وبدلهم منها جوًّا ثقافيًّا آخر؛ ربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية، أي أعطاهم بعدًا زمنيًا جديدًا قوامه التاريخ الماضي كله من خلال سلسلة الأنبياء المتمادية منذ مبدأ الخلق»[(٢)].

ثانيًا: تاريخ منضبط دقيق:

ليس لأمة من الأمم تواريخُ صحيحة منضبطة دقيقة مثل ما لأمتنا، بل ليس عندهم عشر معشار ما عندنا (أي واحد بالمائة)، فهذا تاريخنا يُتناقل معظمه بالسند، وليس لأمة من أمم الأرض اليوم سند لتاريخها لا صحيح ولا موضوع، وتاريخنا يمكن أن يحاكمه أي ناقد مدقق؛ إذ هو مؤسس على قواعد دقيقة منضبطة، أما الأمم الأخرى - من أصحاب الأديان السماوية المحرفة- فهم لم يضبطوا تواريخ أنبيائهم دع عنك عظماءهم وفضلاءهم، ولم يصح منها

---

(١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ٥٨.
(٢) المصدر السابق: ٥٩.

إلا شيء يسير ولا نستطيع أن نعينه غالبًا، وكثير من الحوادث التاريخية في هذه الأمة الإسلامية مذكور في كتاب الله تعالى وهو أصح نص في دنيا الناس وبين أيديهم، ومذكور كذلك في صحيح السنة، ومعلوم كم من الجهود قد بذلت لضبطها وتدقيقها وتصحيحها.

ثالثًا: تاريخ مليء بالتفاصيل المهمة الرائعة:

وهذه ميزة ليست لغيرنا من الأمم، فنحن نعرف من تواريخ عظمائنا وأبطالنا وفضلائنا الكثير الكثير، وننهل من تجارب مَن مات منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وأحواله ودقائق حياته ما يعيننا على إصلاح عيوبنا والارتقاء بأحوالنا، وهناك كتب كثيرة تكفلت بعرض هذه الروائع، وضبط هذه الدقائق والرقائق، وحفظ تلك الكنوز والوثائق، أما الأمم الأخرى فليس عندها تفاصيل عظمائها القدماء، بل ليس عندها تفاصيل تواريخ أنبيائهم بل أعظم أنبيائهم، فهذا موسى -عليه الصلاة والسلام- وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، لا تُعرف دقائق حياته، فلا ندري هل له أولاد أو لا، وإن كان له أولاد فلا ندري من هم، ثم من هي زوجه؟ وما اسمها؟ وكيف كانت حياتها معه؟ وكيف كان يعاملها؟ وكيف هي حياته وشؤونه في خاصة نفسه؟ إلى آخر ما هنالك من شؤون الحياة المختلفة، والأمر نفسه مع نبي النصارى عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- فإننا لا نكاد نعرف من تفاصيل حياته إلا الشيء القليل، فإذا قارنّا ذلك بما نُقل إلينا من التفاصيل الدقيقة جدًا لرسولنا الأعظم ﷺ في كل شئون حياته فسيطول عجبنا، ويعظم اعتزازنا بتاريخنا.

وكذلك الشأن في تفاصيل من جاء بعده ﷺ إلى يوم الناس هذا.

رابعًا: تاريخ مليء بالحيوية والتجدد:

إذ كلما خبا ضوء الأمة في مكان سطع في مكان آخر، فسقوط الأندلس عُوّض بفتح القسطنطينية، وضعف الأمة الإسلامية كلها عقب الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي عُوِّض بقيام امبراطورية المغول المسلمة القوية في الهند، وبقيام دولة عثمان ابن فودي[1] في نيجيريا وما حولها، وهكذا...

ويبعث الله -تعالى- في كل زمان ومكان مَن يرتقي بهذه الأمة ويصلها بأمجاد تاريخها وروعة ماضيها، ويتكئ على موروثها العظيم لصنع حاضر مضيء ومستقبل مشرق رائع.

خامسًا: تاريخ يحمل البشرى لمستقبلنا:

في ثنايا تاريخنا مبشرات رائعات، منقولات ومعقولات، تبشر بمستقبل رائع مشرق، وأعني بالمنقولات ما جاء من بُشريات في كتاب الله - تعالى- وفي كتب السنة بالنصر والتمكين، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

---

(١) هو مؤسس سلطنة سوكوتو في نيجيريا. ولد سنة ١١٦٨/ ١٧٥٤، في بلدة من أعمال جوبير بشمال نيجيريا، ونسبه في الفولاني أو الفلاته، وهي قبيلة عريقة في الإسلام. درس القرآن العظيم واللغة العربية والفقه، وكان أهم أستاذ له الشيخ جبريل الطارقيّ. بدأ الشيخ بمحاربة البدع والخرافات، وانتشرت دعوته في قبائل إفريقية منها الهوسا والطوارق، ثم أعلن الجهاد على الوثنيين سنة ١٢١٨/ ١٨٠٤ وجاهدهم في معارك كثيرة حتى انتصر عليهم وأنشأ دولة في شمال نيجيريا عاصمتها سوكوتو. توفي - رحمه الله تعالى- سنة ١٢٣٣/ ١٨١٨، وتولى من بعده ابنه محمد بَلُّو. انظر ترجمته في «عظماء منسيون»: ١/ ٢٧ وما بعدها.

وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الروم: ٤-٦].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وفي السنة كثرت المبشرات بالفتح كفتح القسطنطينية - وقد حصل - وفتح روما، وإنا لمنتظرون، وهذا الفتح كائن لا محالة إن شاء الله تعالى، وكقتالنا مع اليهود وانتصارنا عليهم، وقد جاء في ذلك حديث باهر، مُثلج للصدور ولأعدائنا قاهر، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله: هذا يهودي خلفي فتعال فأقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود».(١)

وأعني بالمعقولات ما يفهمه قارئ التاريخ من سنن الله -تعالى- في الأقوام، وأنه على مدار تاريخ هذه الأمة الرائع حصلت أحوال وحوادث كان

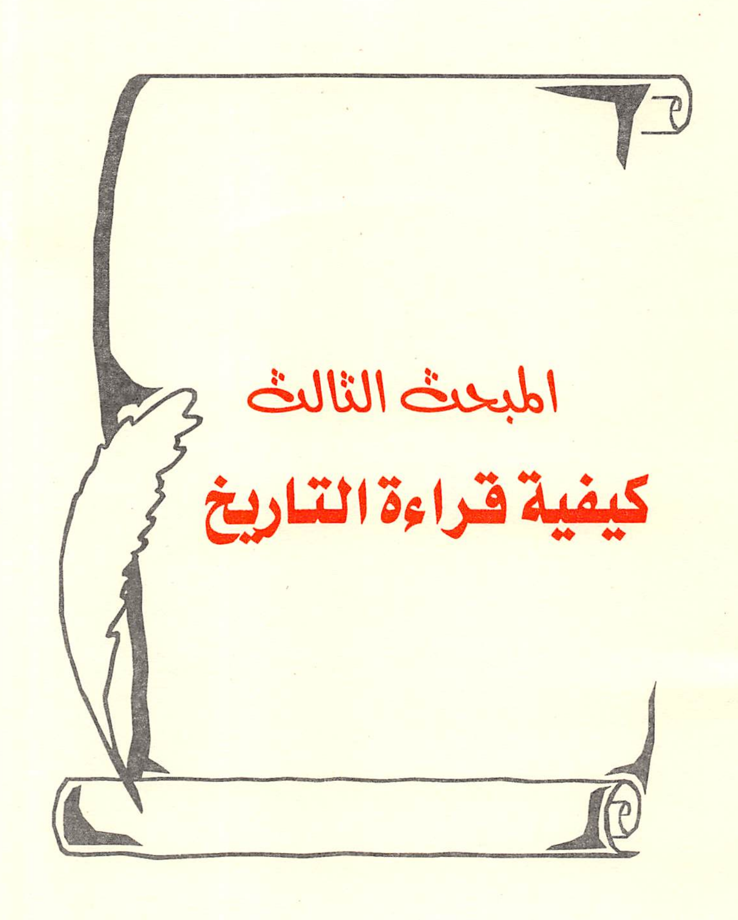
---

(١) صحيح الإمام مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل...

يُخشى فيها على هذه الأمة من الزوال لكن نورها أشرق من جديد، وضياؤها انتشر بعد ظلام مديد.

فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الأمة ستتجاوز ما يحيط بها اليوم من مكايدَ ومصائبَ، وستخرج كالذهب الإبريز إذا أُخرج من النار، إن شاء الله تعالى، وهذا من فضل الله علينا، ودليل واحد من أدلة كثيرة أننا على الحق، وأن الله – تعالى – لن يخذلنا ولن يُسْلِمَنا، سبحانه وتعالى.

* * *



المبحث الثالث

كيفية قراءة التاريخ

المبحث الثالث: كيفية قراءة التاريخ



للقراءة كيفيات وطرائق عديدة، لابد من فهمها والعناية بها لمريد الاستفادة من التاريخ، وأوجز ذلك في الآتي:

١- القراءة الشاملة:

إن النظرة الجزئية لأحداث التاريخ تنتج مواقف إزاء تلك الأحداث لا تتفق مع الواقع تمامًا، وقد تكون ظالمة لأشخاص ووقائع؛ فمن نظر إلى الدولة العباسية من منظور قسوة النشأة وتتبع الخصوم سيحكم عليها حكمًا جائرًا، وسيتناسى كل فضائلها الكثيرة، وسيغمطها حقها؛ فهي الدولة التي نشرت الإسلام في أماكن كثيرة، وارتقت الأمة الإسلامية على يدها في سلم الحضارة والثقافة رقيًّا عظيمًا، وهي الدولة التي كانت قائمة بشرائع الإسلام وشعائره بدرجة مقبولة إلى حد كبير، حتى إنها لما تدهورت سياسيًّا عقب انتهاء طور القوة الأول بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧ بقيت تحافظ على الجوانب الأخرى المذكورة آنفًا على وجه مقبول.

ومن نظر إلى دولة بني عثمان في ضوء الوقائع العسكرية فقط فسيحكم عليها حكمًا غير دقيق، وهو أنها دولة أفلحت في الجوانب العسكرية فقط وأخفقت في سائر الجوانب الأخرى، وهذا ما أصر عليه - ظلمًا - عدد من المحْدثين، والحق أن لها مزايا عديدة، وأنها هي التي حمت كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية من طمع الصليبيين، ونشرت الإسلام في بلاد لم تَنْعَمْ به من قبل.

ومن نظر إلى دول آل البيت المنحرفة في ضوء منجزاتها دون النظر إلى عقيدة القائمين عليها (زيدية أو إمامية أو إسماعيلية باطنية) فسيخطئ في الحكم عليها، وسيرى أنها دول لها فضل وأثر وسيعمى عن خطورة تلك الدول في جوانب أخرى، وهكذا...

وكذلك من نظر إلى التاريخ الإسلامي نظرة القوميين العرب الذين فسروا التاريخ الإسلامي تفسيرًا قوميًا باطلًا، من نظر إليه هذه النظرة فسيخرج بآراء باطلة وتفسيرات خاطئة[1].

وكذلك مَن فسَّر التاريخ تفسيرًا قبليًا فسيقع في نفس النتائج الخاطئة، إذ يُرجع أكثر الأحداث إلى أثر القبيلة وتماسكها أو ضعفها، وهذا أسوأ من صنيع مَن فسر تاريخ الإسلام تفسيرًا عروبيًّا قوميًّا وأكثر أخطاءً، وأعجب نتائج.[2]

إذًا القراءة الشاملة التي تنظر إلى التاريخ من منظار واسع هي المطلوبة، والقراءة الجزئية الضيقة ستنتج آراء وأفكارًا خاطئة.

٢- معرفة كيفية تنزيل الوقائع التاريخية على الأحداث الحالية:

من المطلوبات المهمة - للاستفادة من الوقائع التاريخية- استخراج العبر والعظات وإنزالها على حياتنا المعاصرة على هيئة قواعد وضوابط، لكن من المطلوب -أيضًا- التنبه إلى الآتي أثناء إنجاز هذا العمل المهم:

---

(١) وممن جرى على ذلك المؤرخ العراقي عبدالعزيز الدوري، انظر «المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: ٧٣، ٧٤.

(٢) وممن صنع ذلك عبدالله العلايلي، وانظر ص٧٤-٨٤ من المصدر السابق، وفي قراءاته التاريخية تلك خلط كثير وتخبط في البحث والنتائج.

أ) معرفة الفارق بين الزمان الماضي والحاضر:

إن ما يصلح لقوم قد لا يصلح لآخرين، وإن ما كان مقبولًا في سياق تاريخي معين قد لا يكون مقبولًا في سياق آخر، وإن ما حَسُن في زمن قد لا يحسن في آخر، وهذا سآتي على تفصيله - إن شاء الله تعالى- في جزء قادم من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» إذا فسح الله - تعالى- في المدة، ومَدّ في العمر.

قال الدكتور محمد فتحي عثمان رحمه الله تعالى[١]:

«من الوهم العتيق أن نعتقد أن التاريخ يزودنا بدروس تفيد الأفراد والشعوب بطريق مباشر؛ فإن الظروف التي تحدث فيها الأفعال الإنسانية من النادر أن تتساوى بين زمان وزمان بحيث يمكن تطبيق دروس التاريخ هذه تطبيقًا مباشرًا».[٢]

لكن هذا الكلام لا ينبغي إلا أن يكون منبهًا إلى وجوب العناية بملاحظة الفروق حال استلال العبر والعظات وإرادة الاستفادة منها في زماننا هذا، ولا ينبغي أن يصرفنا عن التاريخ جملة، والدكتور لم يرد هذا قطعًا، والله أعلم.

ب) الحذر من المبالغات:

في التاريخ كثير من المبالغات في جوانب التعبد والسلوك والزهد والأخلاق، وفي المقادير والكميات والأعداد المذكورة في ثناياه، وهذا الأمر - أي المبالغة- يختلف من مؤرخ لآخر، وليس هذا مكان تفصيله فسأعرج عليه

---

(١) توفي سنة ١٤٣١/٢٠١٠ في أمريكا حيث كان يقيم، وهو مصري، رحمه الله تعالى.

(٢) «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٤٦.

-إن شاء الله تعالى- في جزء آخر من هذه السلسلة، لكن ينبغي على قارئ التاريخ أن يحذر كل الحذر من هذه المبالغات خاصة إن أراد الاستفادة من تلك الحوادث في مسيرة حياته وحياة مَن يلوذ به، هذا وإن أحسن مَن تعقب كثيرًا من تلك المبالغات وسماها مجازفاتٍ هو الإمام الذهبي في كتابه العظيم «سير أعلام النبلاء»، والله أعلم.

وسآتي على تفصيل هذا الأمر -إن شاء الله- في رسالة قادمة من هذه السلسلة بعنوان «التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» ففيها سأوضح ما أريد مقرونًا بالأمثلة لخطورة هذه القضية على المسار الإنساني.

جـ) الحذر من الأخطاء التاريخية:

هناك أخطاء وقع فيها بعض مؤرخي التاريخ، وهذه الأخطاء تختلف باختلاف بواعثها وسياقاتها، فمنها أخطاء يسيرة كضبط بعض التواريخ أو الوهم في بعض الأسماء، وهذه يعرفها ويُعنى بتصحيحها المختصون، ولا تكاد تعني العامة في شيء.

ومنها أخطاء جسيمة صعبة؛ كالولوج في مضائق الفتن خاصة فتن الصدر الأول ﭬ بدون إحسان الخروج منها بإحسان تدوينها وضبط وقائعها، فتوقع قارئها في تخبطات كثيرة.

ومنها أخطاء في الانحياز إلى أشخاص دون آخرين بدون باعث إلا الهوى، أو المصالح، وذلك نحو كتابة مؤرخ ما يمدح دولة ما بغير حق أو يذمها بدون وجه حق، لم يدفعه لذلك إلا الرغبة أو الرهبة، أو الفهم الخاطئ؛ وذلك كخطأ كثير من المؤرخين قديمًا وحديثًا في تقويم الدولة المرابطية الجليلة

فغضوا من شأنها جهلًا أو قصدًا لأغراض فاسدة؛ وذلك كصنيع ابن عِذاري المراكشي[١] الذي أساء جدًا لدولة المرابطين، وأثنى كثيرًا على دولة الموحدين، وذلك للعداوة الكبيرة بين الدولتين، فقد حطمت دولة الموحدين دولة المرابطين وورثتها، فمن قرأ تاريخ دولة المرابطين في كتاب ابن عِذاري المراكشيّ: «البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب» فسيجد انحيازًا واضحًا، وغَمْطًا كبيرًا لتلك الدولة الجليلة دولة المرابطين.

ومنها أخطاء في الفهم لبعض الأحداث وبواعثها، وذلك نحو خطأ بعض المؤرخين في فهم وتقويم الدول التي قامت على أساس عقدي باطل كالدولة العُبيدية التي تسمى زورًا بالفاطمية، وكالدولة الصفوية الرافضية.[٢]

كل هذا مما ينبغي الحذر منه والتوقف في قبوله لا أَن يُسارع إلى استلال عبر وعظات من تلك الحوادث وعرضها على الجمهور.[٣]

٣- عدم تجميل التاريخ:

يحب كثير من قارئي التاريخ والباحثين فيه أن يُجمّلوا التاريخ الإسلامي،

---

(١) هو أحمد بن محمد المراكشيّ، أبوعبدالله، المعروف بابن عذاري. مؤرخ أندلسي الأصل، من أهل مراكش. له عدة تصانيف تاريخية. توفي سنة ٦٩٥ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/٩٥.

(٢) وهذا كصنيع المقريزي المؤرخ المصري المعروف في تقويمه الدولة الفاطمية، وسآتي على تفصيل هذا في رسالة قادمة إن شاء الله تعالى.

(٣) في باب رد الأخطاء التاريخية ليقرأ كتاب «أغاليط المؤرخين» لمفتي الشام محمد أبو اليسر عابدين، وكتاب الدكتور يوسف القرضاوي «تاريخنا المفترى عليه»، وفصول من كتاب الدكتور عبدالعليم خضر «المسلمون وكتابة التاريخ»، وكتاب «أباطيل الأباطيل» للأستاذ حسني شيخ عثمان.

وهذا لا يصح؛ إذ التاريخ فيه ما يَجْمل ذكره وفيه ما يسوء ذكره، وهذه سنة الله في خلقه، وهكذا هو التاريخ منذ فجر البشرية.

وهناك مؤرخون يُجمِّلون التاريخ، بذكر الحسنات فقط وإغفال السيئات، وصنيعهم هذا خطأ منهجي واضح، ومما يفعلونه:

أ. عدم ذكر ما يسوء من الوقائع وسير الأشخاص، وإغفال كل ذلك تمامًا.

ب. أو ذكر ما يسوء مختصرًا بدون توسع وانتزاع للعبر والعظات، مما يجعل القارئ في حيرة من أمره ولا يغنيه ما يقرأه ولا يقضي حاجته للمعرفة.

ج. أو ذكر ما يسوء مع انتحال الأعذار الكثيرة التي تذهب بأهمية الحدث، وتجرّئ الباحثين على مزيد من الاعتذارات السَمِجة.

هذا وقد كان في الأقدمين بعض هذا الصنيع -أي تجميل التاريخ- وقد رأيت شيئًا منه في كتاب الإمام أبي بكر بن العربي[1] «العواصم من القواصم»، على أن كتابه هذا جليل عظيم، أثنى عليه جماعة من أئمة المسلمين.

أما المحْدَثون فبعضهم كتب كتابة عجيبة لا تقبل بحال؛ فمن ذلك: الكتاب الذي صنفه أحدهم بعنوان «الحجاج بن يوسف المفترى عليه»، وهذا

---

(١) الإمام العلامة، الحافظ، القاضي أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد، ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٤٦٨هـ، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، توفي سنة ٥٤٣هـ، بفاس منصرفًا من مراكش إلى الأندلس. رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٩٧-٢٠٤.

دفاع أعمى عن رجل ظالم ولغ في الدماء ولوغًا بلغ مبلغ التواتر، وكان جبارًا عسوفًا، يأخذ الناس بأدنى شيء وأقله، بل في بعض الأحيان بدون سبب، فمثل هذا دفاع يبغضه الله -تعالى- ويبغضه المؤمنون، هذا وقد قال الإمام الذهبي في ذلك الظلوم الغشوم:

«أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥ كهلًا وكان ظلومًا، جبارًا، ناصبيًا، خبيثًا، سفاكًا للدماء... قد سُقْتُ من سوء سيرته في تاريخي الكبير وحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين، ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة وتأخيره للصلوات، إلى أن استأصله الله.

فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله؛ فإن ذلك من أوثق عُرى الإيمان.

وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله».[(١)]

فهل مثل هذا يدافع عنه بعد ذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهناك مَن بالغ في الدفاع عن بني أمية في بعض سقطاتهم وتجاوزاتهم، نعم إن في بني أمية مزايا ونقائص، فدفع النقائص الثابتة عنهم عمل باطل، كما أن غَمْطهم حسناتِهم فعل محرم في شرعنا.

٤- عدم تقبيح التاريخ:

هناك اتجاه عند بعض الكتاب بأن التاريخ الإسلامي كله شر وفتن ولم يسلم منه إلا مدة محدودة زمن الصديق والفاروق -رضي الله عنهما- أما ما عدا ذلك فليس فيه إلا الفتن والمشكلات، وهذا غلو واضح وتزوير فاضح؛ إذ

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٣٤٣.

التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشري فيه الخير والشر، وفيه مُدد الهدوء وحوادث الفتن، بل هناك مدد مضيئة في التاريخ الإسلامي أزعم أنها هي الأطول والأكثر امتدادًا في التاريخ، وللأسف إن حامل لواء هذه الفرية -غالبًا- هم المتحررون «الليبراليون» واللادينيون «العلمانيون» والمستشرقون من الكنسيين وغيرهم؛ لحاجة في نفس يعقوب - غالبًا - وهي أنه إذا لم يستطع الصدر الأول أن يعيشوا في أمن واطمئنان وهدوء تحت راية الشريعة فلن يستطيع ذلك مَن يجيء من بعدهم، ومرادهم أن يثبتوا هذا، وأمرًا آخر هو أن الشريعة نفسها لا يمكن العمل بها وإن عُمِل بها فلن تجلب الرخاء والأمن.

وهناك آخرون نهجوا هذا النهج ممن تأثر بكتابات المستشرقين ومَن لَفّ لَفّهم وصنع صنيعهم، قال الأستاذ القرضاوي - حفظه الله- في ثنايا حديثه عن ظلم هؤلاء لتاريخنا، ومَثّل له بتاريخ بني أمية، فبين أن هؤلاء هم من «الأساتذة الأكاديميين المتخصصين في التاريخ، المتأثرين بكتابات المستشرقين ونظرتهم إلى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والأمة الإسلامية والرسالة الإسلامية مثل يولوس فلهوزن[١] وكتابه «تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية» وكتاب «فان فلوتن»[٢] عن «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية»..

---

(١) يوليوس فلهاوزن: باحث توراتي ومستشرق ألماني. ولد سنة ١٨٤٤ في ألمانيا، ودرس حتى أصبح خبيرًا في التوراة، ودرس العربية وتاريخ المسلمين ليطعن فيهم. توفي سنة ١٩١٨. انظر ترجمته في ويكيبديا في شبكة المعلومات «الإنترنت».

(٢) مستشرق هولندي. ولد سنة ١٨٦٦، وتوفي سنة ١٩٠٣. له عدة كتب وتحقيقات في تاريخ المسلمين. انظر المصدر السابق.

وهناك كتاب كثيرون داروا في هذا الفَلَك، وأخذوا كل ما وجدوا في الكتب قضية مسلّمة، وحَمّلوا بني أمية أوزارًا ليس عليهم عبؤها، ومن هؤلاء الكاتب المعروف الذي كتب العبقريات الإسلامية المعروفة، وترجم لعدد كبير من الشخصيات الإسلامية وغيرها: عباس محمود العقاد[١] ولاسيما في كتبه: «عبقرية علي»، و«معاوية في الميزان» و«أبو الشهداء» أي الحسين ﷺ وغيرها.

ومن باب أولى كتابات طه حسين[٢] في التاريخ الإسلامي مثل «الفتنة الكبرى» و«علي وبنوه» وغيرهما.

ومن ذلك ما كتبه الكاتب اليساري أحمد عباس صالح[٣] حول «اليمين

(١) هو عباس بن محمود بن إبراهيم العقاد. مصري. إمام في الأدب. من المكثرين في التأليف مع الإبداع، أصله من دمياط، ولد في أسوان سنة ١٣٠٦/١٨٨٩. وعمل موظفًا بالسكة الحديدية، وبوزارة الأوقاف بالقاهرة، ثم معلمًا في بعض المدارس الأهلية، ثم انقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، له ٨٣ كتابًا. كان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد، وله شعر جيد. توفي بالقاهرة، ودفن بأسوان سنة ١٣٨٣/١٩٦٤. انظر «الأعلام»: ٣/٢٦٦-٢٦٧.

(٢) هو طه بن حسين بن علي بن سلامة. دكتوراه في الأدب. من كبار المحاضرين. ولد في قرية من مغاغة بصعيد مصر سنة ١٣٠٧/١٨٨٩. أصيب بالجدري وهو ابن ثلاث سنين فعمي. بدأ حياته في الأزهر ثم في الجامعة المصرية القديمة. وهو أول من نال شهادة الدكتوراة منها. سافر إلى باريس في بعثة فتخرج في السوربون سنة ١٩١٨، ثم عاد إلى مصر وتدرج في المناصب حتى صار وزيرًا للمعارف، ورئيسًا لمجمع اللغة بالقاهرة. له عدة كتب. توفي سنة ١٣٩٣/١٩٧٣. انظر «الأعلام»:٣/٢٣١-٢٣٢. وله عدة آراء خطيرة وكلمات كفرية نسأل الله السلامة، لم يذكرها الزركلي غفر الله له.

(٣) يساري ماركسي هرب من نظام عبدالناصر إلى العراق وعاش فيه مدة، ثم انتقل إلى لندن، ثم عاد إلى مصر بعد غياب ثلاثين سنة. وهلك فيها سنة ١٤٢٨/٢٠٠٨. الترجمة منقولة من شبكة المعلومات بقلم محمود الورداني.

واليسار في الإسلام».

وما كتبه عبدالرحمن الشرقاوي[١] عن «علي إمام المتقين» وقد نشره على صفحات الأهرام ثم جمعه في كتاب».[٢]

ولا بد عند ذكر تاريخنا من ذكر تواريخ الأمم الأخرى مقارنًا بتاريخنا لنعرف أن تاريخنا أفضل من تواريخ جميع الأمم بل ليس بينه وبينها أفعل تفضيل، وهذا أمر لا بد منه؛ إذ إن تاريخنا إذا أردنا أن نحسن محاكمته وتقويم أحداثه فلابد من إيراد تواريخ الأمم الأخرى في المدة الزمنية نفسها، وبيان ما كان فيها من الحوادث المشابهة لما نريد إيراده، ثم نحكم ونقوِّم بعد ذلك.

والمؤرخ الذي يرى الفارق بين طريقة حكم النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وطرائق مَن جاء بعدهم لابد أن ينظر إلى الأمر نظرة متوازنة؛ إذ ربما اختلفت بعض طرائق الحكم، وربما وقعت مظالم، لكن المعالم الأساسية للحكم الإسلامي باقية، فالشريعة هي الحاكمة، والقضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المفكر (الحسبة) والجهاد وغير ذلك من شعائر الإسلام لم يصب بأذى، وبمعنى آخر إن الخلل الذي أصاب جانبًا من السياسة لا ينبغي أن يعمم بسببه

---

(١) ولد سنة ١٣٣٦/١٩٢٠ في المنوفية بمصر. تخرج في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٣. شغل عدة مناصب في الصحافة ورأس المجلس الأعلى للفنون والآداب. له عدة كتب وروايات ومسرحيات. حاز جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٣٩٤/١٩٧٤. توفي سنة ١٤٠٧/١٩٨٧. «ويكبيديا».

(٢) «تاريخنا المفترى عليه»: ٩٧-٩٨.

وانظر كتاب «أغاليط المؤرخين» للشيخ محمد أبو اليسر عابدين ففيه رد لطائفة من تلك المفتريات.

الحكم على الجوانب الأخرى المضيئة.

ومن عدم الإنصاف في الكتابة التأريخية جمع السيئات من مدد تاريخية مختلفة وسوقها سياقًا واحدًا، وهذا عمل سيءٌ مُغْرِض، ومن هذا الباب ما صنعه أحد الباحثين حيث «قام بتجميع حوادث الاعتقال السياسي من عدة تواريخ قديمة ومعاصرة ثم أصدرها في كتاب تحت عنوان «تاريخ الاعتقال السياسي في الإسلام».

ويأتي غيره ويجمع ما تراكم من معلومات عن الاغتيالات طوال ١٥ قرنًا ويصدرها تحت عنوان «تاريخ الاغتيالات في الإسلام»، وغيره عن «تاريخ التعذيب»، وغيره عن «تاريخ السجون»، وغيره عن «حوادث العنف» أو القتل أو الخطف لينتهي المطاف بهذه الرزمة من الكتب إلى القول: هذا هو تاريخنا: اعتقالات، اغتيالات، تعذيب، سجون ولا شيء سياسيًا غير ذلك...

ولاشك أن كل تاريخ تشعب زمنيًا وعميق الجذور وممتد جغرافيًا فيه ما فيه من حوادث العنف والقتل والتعذيب والاضطهاد والاستبداد، ولا يمكن استثناء أي تاريخ في العالم من تلك اللحظات المظلمة سواء في أوربا أو آسيا أو أمريكا...

ونستطيع أن نجد في كل تواريخ العالم ما يشبه تلك المحاولات الجزئية والقصيرة النظر التي شاءت بقرار ذاتي أن تقرأ تاريخ الإسلام من زواياه السلبية».[1]

---

(١) «المفكرون العرب ومنهج قراءة التاريخ:» ٣٢، ٣٣.

- ولا بد لقارئ التاريخ أن يفهم أن عصور الظلام في أوربا هي أزهى عصور الضياء والحضارة عند المسلمين؛ فعند الأوربيين يبدأ عصر النهضة سنة ١٥٠٠م تقريبًا، بينما النهضة عندنا بدأت قبل هذا التاريخ بثمانمائة سنة بل تزيد، وهذه المدة يعدها مؤرخو أوروبا عصورًا للظلام، والعجيب أنهم يريدون تعميم هذا التحديد للمدنية في العالم كله!! وقد وافقهم على تقسيمهم هذا جماعات من المسلمين ممن انساقوا انسياقًا أعمى خلف أولئك، ولا ريب أن هذا من أكبر الأخطاء التاريخية التي تكاد تُعد من المسلمات البدهية[1]!!

وقد تحدث الأستاذ المحقق محمود محمد الطناحي -رحمه الله تعالى- عن مسألة تشويه وتقبيح العلوم الإسلامية ومنها التاريخ فقال:

«لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاغٍ وموجات متلاحقة من التشكيك في تراثهم وأيامهم: فالشعر الجاهلي غموض وانتحال.

وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات.

والحديث مليء بالوضع والضعف.

والنحو تعقيدات وتأويلات.

والصرف فروض ومتاهات.

والبلاغة تكلفٌ وأَصْباغ.

والعَروض قيود ودوائر تدير الرأس.

والتاريخ صُنِع للحكام والملوك ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها.

---

(١) وانظر «الثقافة التاريخية»: ١٣٧-١٣٩، و«فقه التاريخ»: ٢٥-٢٧.

ومن وراء ذلك فاللغة العربية عاجزة عن مسايرة رَكْب الحضارة؛ لقصورها عن التعبير عن العلوم التطبيقية والكونية لأنها لغة شعر وبيان.

وبمثل هذه الألفاظ الخادعة البراقة يستميلون الشباب ويوقعونهم في قرارٍ عظيم من الافتتان الكاذب والشك المُوبِق»(١).

٥- القراءة المركزة أولاً:

يهاب أكثر قراء التاريخ من دخول المبسوطات الضخمة «الموسوعات» التي ألفت فيه كـ «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير، «والكامل» لابن الأثير، و«تاريخ الرسل والأمم والملوك» لابن جرير الطبري -رحمهم الله تعالى- وغيرها، وذلك لأمرين:

أ. ضخامة المادة وطولها مما قد يصيب القارئ بالملل.

ب. كثرة الاستطرادات التي تخرج بالقارئ عن النسق العام للموضوع بحيث ينتهي إلى تشتت وخلط؛ فإن من عادة المؤرخين القدامى أن يخللوا سرد الحدث قصائد شعرية أو تراجم أوحدثًا تاريخيًا آخر، وقد يعجز غير الخبير بمناهج تلك الكتب أن يتابع موضوعه الذي يريده.

ولعلاج هذا الأمر يحسن بالقارئ المبتدئ أن يقرأ كتابًا على الطريقة العلمية الحديثة التي تلم بالموضوع بإيجاز نسبي وترتيب منهجي دون استطراد أو تطويل، وذلك نحو كتاب «التاريخ الإسلامي» لمحمود شاكر(٢)، ثم يأتي

---

(١) «الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»: ٨.

(٢) وهو مؤرخ سوري معاصر، ويخلط بعض الناس بينه وبين أبي فهر محمود محمد شاكر الأديب المصري المشهور، رحمه الله تعالى.

على ما يريد قراءته من كتب المؤرخين القدامى.

وبعض المؤرخين يوصي باختيار فصل أو باب يتحدث عن موضوع معين، وهذا الموضوع هو أُس مادة الكتاب وأهم ما فيه، فيُقرأ هذا الفصل أو الباب بعناية ودقة كي يُصوّر القارئ موضوع الكتاب في ذهنه فتسلسل أحداثه ووقائعه تسلسلًا سلسًا بعد ذلك.(١)

ثم اقرأ هذا الباب أو الفصل مرة أخرى وسجل الأفكار أو الكلمات أو الوقائع التي لم تفهمها، أو أسماء الرجال الذين لا تعرفهم أو لا تعرف من سيرهم إلا القليل، وسجل بعض الملاحظ حول تسلسل الأحداث التي ترى أنها مهمة، ثم ارجع إلى فهرست الكتاب لعلك أن تجد إجابة لبعض الأسئلة أو الملاحظ التي دونتها، فإن لم تجدها في الكتاب فارجع إلى كتاب آخر ترى أنك ستجد فيه بغيتك(٢).

تدريب عملي:

ذكر بعض أساتذة التاريخ طريقة عملية للاستفادة من القراءة في كتب التاريخ فقال:

«فالخطوة الأولى: القراءة، فعلى الطالب أن يقرأ في العصر الذي يريد البحث فيه، فمثلًا إذا أراد البحث في عصر الخلفاء الراشدين، فلكي يلم بعنَّاصر هذا العصر عليه أن يقرأ فيه قراءة عامة يلم من خلالها بكل عناصر العصر سياسيًّا وعسكريًّا وحضاريًّا، وقراءة عامة من المصادر أو المراجع،

---

(١) «فصول مختارة من كتاب التاريخ: مرشد لدراسة متقدمة»: ٥٨٨.
(٢) المصدر السابق.

والأفضل أن يقرأ ملخصًا عامًا لهذا العصر.

وخلال قراءاته هذه يدون ما يقتبسه من موضوعات مختلفة يحدد لها الصفحات التي قرأها في ذلك الكتاب ويكتبها أسفل التدوين الذي دونه، لأن ذلك سيفيده عندما يحتاج إلى تفاصيل أكثر لهذا العصر إذا ما بدأ البحث فيه، وبعد أن يتم القراءة، ويتم التدوين لعناصر العصر يبدأ في مراجعة ما كتبه، فيقسم ما كتبه إلى عناصر ويصنف العناصر السياسية ثم العناصر الحضارية، ويفصل ذلك بتقسيم العناصر السياسية إلى أجزاء تشمل السياسة الداخلية لحاكم ما أو خليفة، ثم السياسة الخارجية.

ثم يُجَزّئ ذلك أيضًا عندما يجعل للسياسة الداخلية عناصر تشمل السياسة الداخلية تجاه الحكم والإدارة، أو السياسة المالية أو الدينية أو غير ذلك، ثم يقسم السياسة الخارجية إلى علاقات بين دولته والدول الأخرى كيف كانت وسارت، والاتصالات التي دارت بينهما، والمعاهدات والمواثيق وغير ذلك.

كما يقسم العناصر الحضارية إلى أجزاء تتضمن الواقع الحضاري لذلك العصر في ذلك المكان في عهد الحاكم كأن يجعل للحالة الاقتصادية أجزاء من زراعة وصناعة وتجارة، ثم للجانب الاجتماعي من حيث حياة المجتمع وطبقات المجتمع وعناصره ومسكنه وملبسه ومأكله وعاداته وتقاليده وأعياده واحتفالاته، كما يتطرق إلى جزء آخر يتعلق بالجانب الثقافي، أي يدرس المؤسسات الثقافية والدينية من مدارس ومعاهد ومساجد لكل طوائف المجتمع من المسلمين وأهل الذمة من يهود ونصارى ومجوس، ثم العلوم التي كانت تدرس وأشهر علماء ذلك العصر وأهم مصنفاتهم ومؤلفاتهم، وهكذا.

ومـن أمثلـة ذلـك - كـما أشرنـا - أن الباحـث بـدأ بقـراءة عصر الخلفـاء الراشدين قراءة عامة واستوعب ما قرأه من كل العناصر، ثم يضع نقاط العصر ويتدرج في ذلك حتى تصبح كل عناصر العصر واضحة أمامه، في هذه المرحلة تروقه فترة معينة ثـم يختار جزءًا من هـذا العصر، وقد أصبح ذلك في بؤرة اهتمامه، فمثلًا عند قراءة عناصر عصره وقع اختياره على الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، ووقع اختياره على فتح مصر، وبذلك وصل إلى اختيار موضوع بحثه.

هذا بالنسبة للباحث المبتدئ»[1].

٦- فهم الفرق بين مناهج المؤرخين القدامى والمحدثين:

هنـاك فـروق مهمـة في طرائـق كتابـة التـاريخ بـين المـؤرخين القـدامى والمحدثين؛ ولابد من فهم هذه الفروق للاستفادة المثلى من قراءة التاريخ، ومن أهم هذه الفروق هي:

أ) الأسلوب:

المؤرخون القدامى يكتبون المادة التاريخية ويخلطونها بعاطفتهم وآهاتهم الحزينة، أو عبارات الإعجاب والإشادة، وهذا منتشر جدًا في كتاباتهم، بينما المؤرخون المحْدثون لا يكتبون بهذه الطريقة حرصًا منهم على اتباع المنهج العلمي الخالي من العواطف المصاحبة للمادة المسرودة، لكن في ظني أن أي مؤرخ في الدنيا لا يمكن له أن يتخلى عن عاطفته تمامًا وهو يكتب، وهذا الذي يُطلق عليه أحيانًا فلسفة المؤرخ للتاريخ، فهذه لا سلطان لأحد عليها فهي

---

(١) «منهج البحث التاريخي واستخدام التقنية الحديثة»: د. محمد محمود إدريس ٣٠-٣١.

نابعة من عقيدة المؤرخ وبيئته وأحوال أمته، فمهما ادعى مؤرخ عدم التحيز لهذه الثلاثة فهو يخادع نفسه، لكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال إن أسلوب المحْدثين فيه جفاف ويُبس وأسلوب القدامى فيه عاطفة ولين وجمال، وليتضح هذا إليكم هذا النص الذي قدّم به المؤرخ ابن الأثير في كتابه «الكامل» لأحداث غزو التتار للعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري:

«لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخر أخرى؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟

ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟

فياليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا.

إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا فنقول:

هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله -سبحانه وتعالى- آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر[1] ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس،

---

(١) بختنصر أو نبوخذ نصر. ولد سنة ٦٠٥ قبل الميلاد. وتوفي سنة٥٦٣ قبل الميلاد. وهو أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة. قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة في الشام ودمر عدة ممالك منها مملكة يهوذا، وسبى الكثيرين وحملهم إلى بابل. «ويكيبيديا».

وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى مَن قُتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على مَن اتبعه ويهلك مَن خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح؛ فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر[١] وبلاساغون[٢]، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى[٣] وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره.

ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان[٤] فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلًا ونهبًا.

ثم يتجاوزونها إلى الري[٥] وهَمَذان[٦] وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق.

---

(١) وهي اليوم مدينة في تركستان الشرقية في قبضة الصينيين، عجل الله فرجها.

(٢) مدينة قريبة من كاشغر وراء نهر سيحون.

(٣) هما اليوم مدينتان معروفتان بهذا الاسم في جمهورية أوزبكستان.

(٤) خراسان القديمة تتوزع اليوم في عدة دول، وهي إيران وأفغانستان وجنوب تركمانستان، وفي إيران اليوم مقاطعة باسم خراسان: «ويكيبيديا».

(٥) مدينة تاريخية بالقرب من طهران اليوم.

(٦) مدينة تاريخية تقع في إيران اليوم.

ثم بلاد أذربيجان وأرانية[١] ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينجُ إلا الشريد النادر في أقلَّ من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دَرْبَنْدشروان[٢] فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم.

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز[٣] ومَن في ذلك الصُقْع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلًا ونهبًا وتخريبًا.

ثم قصدوا بلاد قفجاق[٤] وهم من أكثر الترك عددًا فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغِياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها.

فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة[٥] وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان[٦] وكرمان[٧] ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه

---

(١) هي موضع في القوقاز اليوم، وانظر «بلدان الخلافة الشرقية» ٢١١ وما بعدها.

(٢) من بناء أنوشروان، وتسمى باب الأبواب، وتقع في داغستان اليوم.

(٣) اللان واحدة من ولايتين تؤلّف بلاد الخَزَر، والولاية الأخرى هي أبخاز، وبلاد الخزر اليوم تقع غرب جورجيا «جرجستان»: وانظر «بلدان الخلافة الشرقية»: ٢١٣.

(٤) هي بلاد قزقستان اليوم.

(٥) غزنة اليوم مدينة مأهولة في أفغانستان.

(٦) بلدة شرق إيران اليوم من أطراف خراسان.

(٧) مدينة في وسط إيران اليوم.

ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلًا وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم؛ فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلًا لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئًا فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحًا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبْتَلَ بها أحد من الأمم منها هؤلاء التتر -قبحهم الله- أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة -إن شاء الله تعالى-.

ومنها خروج الفرنج - لعنهم الله - من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى[1].

---

(١) «الكامل»: ١٠/٣٩٩، ٤٠٠.

انتهى هذا النقل الجامع بين العاطفة الجليلة وسرد الحادثة بإيجاز، فهو مثير لأشجان القارئ مع حصول الفائدة المتوخاة.

وهذا المنهج في الكتابة -الجامع بين العاطفة الجليلة وتوخي الصدق والعدل- لا يُمل القارئَ مهما طالت به القراءة، بل إنه يترك في نفس القارئ مشاعر قوية تهزه وتدفعه إلى التغيير من سلوكه وطرائق تعامله مع المجتمع، بل ربما تدفع به إلى المشاركة في مجتمعه مشاركة نافعة.

قال الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان في مسألة الكتابة التاريخية المشوّقة:

«عَزّ على الأدباء أن يتفلّت التاريخ من قبضتهم -وهو زينة دراساتهم- فقالوا: إن ما يتصف به رجال العلم من حياد جاف شيء فظيع لا يمكن أن يطيقه التاريخ!!

وإن العلم لا يعطينا من هذا التاريخ إلا العظام المعروقة[1] التي يكسوها الأدب لحمًا وينشئها خلقًا آخر، ومن هؤلاء تريفليان المؤرخ الانجليزي المولود سنة ١٨٧٦ فهو يقول:

«من كان فاقد الانفعال والحماسة فقلّما يؤمن بانفعالات غيره، إنه لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدًا».[2]

«والواقع أن المؤرخ الذي يكتب تاريخًا لا يَلِذّ لأحد يعتبر مؤرخًا رديئًا بقدر ما يبعثه من إملال، فهو بحكم مهنته مسئول عن أن يدون -إلى جانب

---

(١) أي المجردة من اللحم.

(٢) «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٣٠.

الأشياء العادية المعاصرة- أكثر حوادث الماضي إثارة، وأن يبتعث الجو الذي وقعت فيه تلك الحوادث، فإذا ما جاء وصفه لمعركة كأنه تقليب في دليل بائع بنادق، وإذا ما جاءت قصته التي تصف مغامرة بطل من الأبطال كأنها سِجِلّ لكاتب رُخص فإنه يكون عند ذلك الحد أخفق في إعادة تصوير الجو المناسب للحوادث».[1]

ب) السرد:

المؤرخون القدامى إذا سردوا المادة التاريخية المراد الحديث عنها فإنهم غالبًا ما يخلطونها بغيرها؛ مثل التراجم؛ وهي سير حياة الأشخاص -وهذا كثير في كتبهم- والأبيات الشعرية الكثيرة، والاستطرادات التي يخرجون بها عن موضوعهم الذي يسردونه إلى موضوع آخر، ثم يعودون من قريب أو بعيد إلى موضوعهم الذي بدءوا به، وهذا مرهق لقراء التاريخ في عصرنا.

بينما يُحمد للمُحْدثين أنهم -لمراعاتهم المنهج العلمي الحديث- لا يقعون في هذا الخلط والتشتيت، وتجد كتبهم التاريخية حسنة السرد وقوية التركيز على ما يريدون إيراده.

لكن يبقى أن طريقة سرد القدامى للتاريخ أجمل وأحسن وقعًا في نفوس القراء، ولكل طريقة ميزتها.

ج) النقد:

إن النقد لما يورده المؤرخ أمر في غاية الأهمية؛ لأنه بالنقد يطمئن قارئ التاريخ لصحة المادة التي يقرأها وترتاح نفسه لمتابعة الاطلاع، وعكس هذا

---

(١) «المسلمون وكتابة التاريخ»: ٣٠.

صحيح؛ إذ القارئ للكتاب الخالي من النقد والذي تكثر فيه الروايات الضعيفة أو الأساطير الموضوعة سيعزف عنه وتمله نفسه.

هذا وإن أكثر المؤرخين المحدثين يراعون مسألة النقد هذه، ولا يوردون الأساطير والمرويات شديدة الضعف، التي تورط فيها بعض ضعاف قدامى المؤرخين، لكنهم قد يبالغون فيستبعدون الوقائع الممكنة، ويردون الأحداث التي يرون أنها لا توافق ما يعتقدونه ويذهبون إليه.

* أما المؤرخون القدامى فكثير منهم لا ينقد الأخبار التي يوردها، ويعوض ذلك التحقيق العلمي الجيد الحديث للكتب الذي يُنتظر منه نقد الأخبار والآثار نقدًا يعوض تقصير المؤرخ في نقدها.

هذا وإن من أعظم المؤرخين القدامى نقدًا -في ظني- هو الإمام الذهبي الذي تتوافر المادة النقدية في كتبه التاريخية خاصة كتاب «سير أعلام النبلاء»[1]، ثم يأتي بعده الإمام ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»، وهذان إمامان كبيران اغترفا من علوم الشرع قدرًا عظيمًا ساعدهما على إحسان قراءة التاريخ ونقده.

ثم جاء ابن خلدون[2] الذي يعده أكثر مؤرخي العرب والغرب

(١) هناك كلام طويل في تقويم نقد الإمام الذهبي للمادة التاريخية سآتي به -إن شاء الله تعالى- في رسالة قادمة في هذه السلسلة أتحدث فيها عن مناهج بعض المؤرخين.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، وولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ بها، ورحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالًا، واعترضته وشايات ودسائس ثم عاد إلى تونس، ثم ارتحل إلى مصر فأكرمه سلطانها=

المعاصرين أعظم مؤرخ ظهر في تاريخ البشرية[١]، فأجاد إلى الغاية في مقدمته المشهورة، وأتى فيها بمادة نقدية ثرية، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعده من المؤرخين.[٢]

* وليس النقد فقط هو المراد، إنما المراد هو النقد القائم على أسس شرعية صحيحة، وهذا لا يقوى عليه إلا مؤرخ له حظ وافر من العلوم الشرعية.

وقد كان أكثر المؤرخين القدامى علماء شرعيين؛ فلذلك كانت كتاباتهم موثقة ومعتدلة إلى حد كبير، فالإمام الطبري صاحب «تاريخ الأمم والرسل والملوك» كان إمامًا مجتهدًا عارفًا بالفقه والحديث والتفسير واللغة بل كان إمامًا في كل ذلك.

والإمام الذهبي صاحب الكتب التاريخية الكثيرة، والإمام ابن كثير صاحب «البداية والنهاية» كانا متضلعين من علوم الشريعة واللغة.

وابن خَلِّكان[٣] صاحب «وفيات الأعيان» كان قاضيًا.

=الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم عُزل وأعيد. توفي فجأة بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، رحمه الله تعالى. وكان فصيحًا، عاقلًا، صادق اللهجة، طامحًا للمراتب العالية، له عدة كتب. انظر: «الأعلام»: ٣/ ٣٣٠.

(١) انظر «المسلمون وكتابة التاريخ»: ١٤٦، ٢١٨، ٢٧٥، وانظر «المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: ٢٠٠.

(٢) انظر «المسلمون وكتابة التاريخ»: الفصل الثالث بعنوان «منهجية نقد الرواية التاريخية عند ابن خلدون».

(٣) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكيّ الإربلي، أبو العباس: المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، صاحب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وهو أشهر كتب التراجم. ولد في إربل - بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي - سنة ٦٠٨/ ١٢١١ وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها. سافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى مصر =

والصفدي(١) صاحب «الوافي بالوفيات» كان عالمًا بالشرع واللغة.

وكذلك الإمام ابن حجر العسقلاني(٢) وكان قد صنف عدة كتب تاريخية.

والإمام السخاوي كذلك، والإمام السيوطي(٣) لا يخفى كم ألّف من كتب تاريخية كثيرة، والإمام يعقوب بن سفيان الفَسَوّي(٤) صاحب «المعرفة والتاريخ»، وهكذا...

* أما المؤرخون المحدثون فلا أعلم أن أحدًا منهم عالم شرعي معتبر معروف، وبعضهم كان عالمًا باللغة والأدب مثل الأستاذ محمود محمد شاكر المصري.

=فأقام سبع سنين، ورُدّ إلى قضاء الشام، ثم عزل عنه بعد مدة. ولي التدريس في كثير من مدارس دمشق، وتوفي فيها فدفن في سفح قاسيون سنة ٦٨١/١٢٨٢ رحمه الله تعالى. يتصل نسبه بالبرامكة. انظر «الأعلام»: ١/٢٢٠.

(١) هو خليل بن أيبك بن عبدالله، صلاح الدين الصفدي، أديب بارع، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد بفلسطين سنة ٦٩٦هـ وإليها نسبته، وتعلم في دمشق، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها عام ٧٦٤هـ. وكتب الخط الجديد، وقال الشعر الحسن، وكان محببًا إلى الناس، حسن المعاشرة، جميل المودة، له زهاء مائتي كتاب في التراجم والتاريخ واللغة والأدب وغيرها. رحمه الله تعالى. انظر: «الأخبار العليات من الوافي بالوفيات»: ١/١٠.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/٣٦.

(٣) هو الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن محمد السيوطي المصري. كان عالمًا مجتهدًا، وجرى بينه وبين علماء عصره خلافات كثيرة بسبب دعواه الاجتهاد. توفي في القاهرة سنة ٩١١هـ رحمه الله تعالى. انظر: «شذرات الذهب»٨/٥٥.

(٤) يعقوب بن سفيان بن جُوان الفارسي، من أهل مدينة فسا ولد في حدود عام ١٩٠هـ ومات بفسا سنة ٢٧٧هـ. رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»١٣/ ١٨٠-١٨٤.

وأرى - والله تعالى أعلم - أنه لا بد لمن يريد التصدي لنقد الحوادث التاريخية أن يحوز قدرًا جيدًا من الثقافة الشرعية يستطيع به أن يميز الصالح من الطالح، ويحسن به الانتقاء والاختيار.

والحد الأدنى أن يكون عارفًا لطرائق تمييز الأخبار الصحيحة من السقيمة بموازين أهل الحديث، وأن يكون عارفًا بالحلال والحرام على وجه الإجمال وليس التفصيل(١).

٧- البعد عن المزالق التاريخية:

في التاريخ العديد من المزالق التي ينبغي عدم التركيز عليها، وعلى رأس ذلك الفتن التي وقعت بين الصحابة ﷺ جميعًا، فقد كان السلف يتجنبون الخوض فيها ويقولون هي فتنة جَنّب الله أيدينا منها فنكف ألسنتنا عنها، وكانوا يوصون في الكتب التي يكتبونها لبيان العقيدة الصحيحة بقولهم فيها: «ونكف ألسنتنا عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ»، فأخبار الفتن هذه ينبغي الإعراض عنها تمامًا.

* وكذلك يكف طالب التاريخ عما وقع من بعض أصحاب رسول الله ﷺ من أمور مرجوحة فيعرض عنها ولا يتوسع في عرضها أو ذكرها، فالصحابة كلهم عدول -رضي الله عنهم- لكن لا تعني العدالة عدم الوقوع في الخطأ، وأخطاؤهم قليلة مغمورة في بحر حسناتهم، رضي الله عنهم، والأجمل بطالب التاريخ أن يبتعد تمامًا عن هذا الموضوع المثير لأمور هو في غنى عنها.

---

(١) سيأتي تفصيل لهذا -إن شاء الله- في الرسالة القادمة الثانية بعنوان «إعداد المؤرخ الثقة».

- وكذلك يكف عن ذكر بعض ما ورد في ثنايا بعض كتب التاريخ من مفاسد خلقية وسلوكية مثل الزنا واللواط وشرب الخمر، ومثل هذا يكثر في كتب معينة مثل «الوافي بالوفيات» للصفدي، ومثل «خلاصة الأثر في أهل القرن الحادي عشر» للمُحِبِّي[1]، إلى آخر هذه الكتب التي تورط مؤلفوها في إيراد مثل هذا الذي يفُسد الأخلاق ويضر بدين المرء.

٨- الاطلاع على كتب التاريخ الحديث:

وهذا هو البحر المتلاطم الخِضَمّ، والمنهل الأكبر الأعظم، وهو الذي ينبغي أن يتريث المرء طويلًا قبل الخوض فيه والوقوف على دقائقه وتفصيلاته؛ وذلك لتشعبه وكثرة أحداثه كثرة هائلة.

ويمكن اعتبار الخط الزمني الفاصل بين التاريخ الحديث والتاريخ الوسيط هو الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١١هـ/ آخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلادي: ١٧٩٩-١٨٠١، فمنذ ذلك التاريخ مر على العالم الإسلامي أحداث ضخمة وكثيرة جدًا، ففي القرنين الفائتين وقع الاحتلال لأكثر بلاد الإسلام فيما يعرف خطأ بـ«الاستعمار» وهو استخراب وليس استعمارًا، وكذلك سقطت الخلافة، وتكونت كل الجماعات الإسلامية،

---

(١) محمد أمين بن فضل الله بن محب الله المحبي، الحموي الأصل، الدمشقي: مؤرخ، باحث، أديب. عُني كثيرًا بتراجم أهل عصره، فصنف «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» و«قصد السبيل بما في اللغة من الدخيل» على حروف الهجاء، بلغ به الميم، وله ديون شعر. ولد في دمشق سنة ١٠٦١/١٦٥١، وسافر إلى الآستانة وبورصة وأدرنة ومصر. وولي القضاء في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي فيها سنة ١١١١/١٦٩٩ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٥/٤١.

ونشأت المذاهب العقدية الضارة الجاهلية مثل الشيوعية والقومية واليسارية والاشتراكية والوجودية والبعثية وغيرها، ونشأت الدول الإسلامية بحدودها المعروفة اليوم حتى بلغت قرابة الستين، وحُكِم في أكثرها بغير ما أنزل الله في سابقة تاريخية ليس لها نظير في ديار الإسلام، وبرز رجال عظماء ذادوا عن حمى الدين، وفي الوقت نفسه برز رجال كان لهم أسوأ الأثر على الإسلام، وقامت حربان عالميتان هلك فيهما أكثر من ستين مليونا... إلخ.

ولا بد أن يعرف المريد القراءة للتاريخ الحقائق التالية حول العصر الحديث:

١) ليس هناك كتاب تاريخ واحد جامع اشتمل على التاريخ الحديث كله، بل إن أكثر أحداث التاريخ الحديث مفرقة في عدة كتب.

٢) هناك أحداث تاريخية كثيرة لم تدون إلى الآن، خاصة الأحداث المتعلقة بنشوء الدول.

٣) هناك أحداث تاريخية كثيرة دُوِّنت خطأ؛ جهلًا، أو نفاقًا ومداهنة، أو مداراة.

٤) هناك أحداث تفرد بكتابتها المحتلون لبلادنا -تقريبًا- أو أنهم أتلفوا كل كتابة سوى كتاباتهم؛ ومن أقرب الأمثلة على ذلك التاريخ المفصل لإندونيسيا؛ فقد احتلها الهولنديون ثلاثة قرون تقريبًا فطمسوا التاريخ، ونفوا أبطال الملايو ورموزهم إلى جنوب افريقيا، وقتلوا آخرين، فلم يبق من التاريخ الطويل لتلك البلاد سوى ما كتبه هؤلاء المستشرقون -وهم غير مؤتمنين في الجملة- ونِتَف قليلة كتبها

أهل البلاد بلغتهم الأصلية وبحروفها العربية التي لم تَعُد يكتب بها اليوم، وهذه النتف لا تروي ظمأ المتعطشين لمعرفة تواريخ تلك البلدان على التفصيل.

وقس على ذلك ما كتبه الفرنسيون عن بلدان إفريقيا السوداء، وما كتبه الروس عن القوقاز وتركستان الغربية، وما كتبه الصينيون عن تركستان الشرقية... إلخ.

٥) هناك أحداث وقعت في الدول الإسلامية البعيدة جغرافيًّا عن «دول المركز» -وهي جزيرة العرب ومصر والشام والعراق ودول المغرب العربي وتركيا وإيران- وأحداث وقعت في بلاد إسلامية هامشية ليس لها أثر في أحداث العصر، وبسبب ذلك أُهمل كثير من تلك الأحداث في ذينك الصنفين من الدول فلم يدون، أو دُوّن ففقد، أو هو موجود لكن لا يُدرى أين هو.

- لذلك كله كان استيعاب أحداث العصر الحديث أمرًا أقرب إلى العُسْر منه إلى اليسر، وفي بعض المواضيع يقترب من كونه مستحيلًا، لكن هناك بعض الكتابات المقربة للتاريخ الحديث، من أهمها:

أ) كتابات الأستاذ محمود شاكر ياسين(١) عن دول الإسلام الحديثة، وهي سلسلة موجزة جيدة، وله كتاب مهم في باب آخر من أبواب التاريخ الحديث يوجز فيه كثيرًا من الأحداث والوقائع وهو «الثقافة التاريخية».

---

(١) هو أستاذ سوري تضلّع من التاريخ وله فيه كتابات كثيرة جيدة، وقد جاء إلى الرياض فدرّس فيها، ولا يزال حيًّا، حفظه الله تعالى ونفع به.

ب) «معالم تاريخ الإسلام المعاصر» للأستاذ أنور الجندي[1]، وهو كتاب جيد إلا أنه لم يذكر مصادره ومراجعه فيه كعادته، وله كتب أخرى أيضًا في هذا الباب.

جـ) كتاب «حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد، مع الحواشي النافعة جدًا للأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

د) كتابات الأستاذ أحمد شلبي في التاريخ الحديث، وهي قليلة لكنها نافعة[2].

هـ) كتاب الأستاذ يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.

و) بعض كتابات الأستاذ عماد الدين خليل، وتمتاز بالتحليل العميق واختيار الكليات.

ز) بعض كتب الأستاذ علي الصلابي خاصة كتابه عن السنوسية.

وتلك الكتب كلها ليست سوى قطرة من بحر التاريخ الحديث.

٩- فهم بعض المصطلحات والتعبيرات التاريخية المهمة:

قد كثر في كتب التواريخ القديمة والحديثة ذكر بعض المصطلحات

---

(١) أستاذ مصري مؤرخ، له أكثر من مائتي كتاب بعضها يوصف بأنه موسوعة، وقد ظُلم الرجل ولم يوف حقه، لكن أرجو أن يكون جزاؤه عند الله -تعالى- وافيًا، وقد مات رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٢/٢٠٠٢.

(٢) وقد نقدت بعض كتاباته في السيرة النبوية في كتابي «جهود المؤرخين المحدثين في كتابة السيرة النبوية» فانظره إن شئت.

والتعبيرات المهمة التي تُعد مفيدة مساعدة في فهم وقائع التاريخ، ومن هذه المصطلحات:

١) نظام الالتزام:

ويُعنى به ذلك النظام الذي وضعته دولة ما في تحصيل خراج الأرض والضرائب المتعددة من الناس، وعادة ما يقوم هذا النظام على الشدة والقسوة والظلم، وقد سبب خرابًا للممالك وهيَّأ البلاد الإسلامية للسقوط في براثن المحتل المستخرب.

٢) العصور المظلمة:

ويُقصد بها العصور التي كانت أوروبا فيها ترزح تحت نِير الجهل والتخلف، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت تلك العصور أجمل وأحسن مدد التاريخ الإسلامي ففيها كانت البعثة النبوية الجليلة العظيمة، وفيها كان ظهور الرجال العظماء في مدة السلف في القرون الثلاثة الأولى وبعدها، وفيها عَظُم شأن الحضارة الإسلامية الجليلة، فمن خلط بين الأمرين وأطلق على تلك المدة العصور المظلمة فقد أساء التصور والتعبير، وخلط خلطًا بينًا.

٣) عصر التنوير:

وهذا مصطلح مبهم، فإن أردنا بالتنوير الارتقاء في سلم الحضارة المادية فلا بأس، أما إن أردنا بالتنوير الثورة على الثوابت الإسلامية، والأخلاق فهذا غير مسلم، وللأسف فإن أكثر من يحتفل بعصر التنوير إنما يريد به ما حدث في أوروبا من ثورة على الدين والأخلاق والثوابت، ويريد أن يُنزل ذلك على بلاد الإسلام!! في مغالطة تاريخية واضحة.

٤) **مجموعة مصطلحات حديثة نسبيًا تتعلق بطرائق الحكم** مثل: النظام الإقطاعي، الرأسمالية، الشيوعية، الاشتراكية.

ومصطلحات تتعلق بمسار الفكر وطرائق الحياة نحو: الاستبداد، الرجعية، التحرر «الليبرالية»، والتطرف، الاستنارة، المحافظة، المركزية، البيروقراطية إلخ... ففهم تلك المصطلحات أمر لابد منه عند قراءة كتب التاريخ الحديثة[١].

١٠- الحذر من كتابات أكثر المستشرقين ومَن تابعهم من المسلمين:

أخذ العالم الإسلامي في الانحطاط والتدهور منذ بدايات القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وقد استلم الراية الغربيون الذين كانوا قد قطعوا شوطًا طويلًا في نهضتهم التي ابتدأت منذ أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وأخذ الغربيون في دراسة الشرق الإسلامي بنية غزوه وتدمير قوته ونهب ثرواته، وسميت تلك الدراسات بالاستشراق، وأصحابها بالمستشرقين، وكان أكثر هؤلاء تدفعهم دوافع كنسية أو سياسية، وفي أكثر الأحيان يختلط الدافعان فلا يتميزان أو يكون أحدهما وهو الديني ستارًا للسياسي.

وقد تميزت تلك الدراسات بالجدة والقوة والمثابرة على الوصول إلى الهدف لكنها كانت -في أكثريتها الساحقة- توصف بقلة الإنصاف، وليِّ عنق الحقيقة،

(١) ليُرجع في هذا إلى «الموسوعة الميسرة في الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة» وهو كتاب من مجلدين من إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وكتب عديدة بعنوان «القاموس السياسي».

والاعتساف في الأحكام، وابتسار النصوص، وتأويلها، والاكتفاء ببعضها عن بعض، كل ذلك قام به أولئك المستشرقون على مدار أربعة قرون تقريبًا[١].

فلما احتلوا بلادنا استطاعوا أن يبثوا تلك الدراسات فينا عن طريق تلاميذ اصطنعوهم وربوهم على أعينهم حتى صاروا لا يتكلمون إلا بألسنتهم ولا ينظرون إلا بأعينهم، ومن سلم من أولئك من هذا فإنه لم يسلم من الانبهار بهم إلى الحد الذي اختلطت فيه الحقيقة عنده بالأكاذيب والظلمات بالنور، وقليل من الباحثين المسلمين في تلك الحِقبة مَن سلم من أولئك المستشرقين ودراساتهم الخبيثة في وسائلها ومقاصدها.

واهتم كثير من المستشرقين بعلم التاريخ بل صرفوا فيه أكثر جهودهم، وألفوا فيه مؤلفات كثيرة، وحققوا عشرات من كتب التاريخ الإسلامي[٢]، وحرصوا فيما ألفوا وحققوا -إلا قليلًا منهم- على وضع السم في الدسم، والخَلّ في العسل، وتابعهم على ذلك جماعات من الدارسين والباحثين المسلمين، لذلك كله وجب على قارئ التاريخ أن يتنبه لهذا، وألا يغترّ بأولئك الذين لبسوا مُسوحَ العلم وادعوا الإنصاف والتحقيق العلمي وهم من كل ذلك بمنأى[٣]، على أن بعضهم له دراسات جليلة، وأعمال جادة ينبغي

---

(١) يعيد بعض الباحثين تاريخ الاستشراق إلى ألف سنة خلت يوم كان الغربيون يستفيدون من حضارة الأندلس، انظر «المستشرقون والتاريخ الإسلامي: ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) انظر «المنهج في كتابات الغربيين»: ٢٠-٢١.

(٣) من الكتب التي ردت على أولئك: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ عباس ابن محمود العقاد، وكتاب «الإسلام بين الإنصاف والجحود» للأستاذ محمد عبدالغني حسن.

الاستفادة منها، وقليل من المستشرقين من هداه إنصافه في عمله ورغبته في الحقيقة إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه[(١)] [(٢)]:

«لا شك أن للاستشراق دورًا إيجابيًا يتمثل بالخصوص في استخدام الطرق والمناهج العلمية، لكن الاستشراق لم يدرس التاريخ الإسلامي من الداخل -كواحد من أهله- ولكن من الخارج؛ أي دراسة مجردة من العاطفة أو التعاطف مع صانعي ذلك التاريخ، ونظرًا لخلفيات دينية وحضارية معينة فإن الاستشراق قد ساهم في تشويه حقيقة المسار الذي اتبعه التاريخ الإسلامي، **ومن مشجعات هذا التشويه** غياب العقل الإسلامي الذي غيبه الاستشراق، فقد كان المسلمون عندئذ في مرحلة التخلف...

ومن الطبيعي أن يتأثر مثقفو المسلمين بمدرسة الاستشراق وتفسيرها للتاريخ الإسلامي؛ لأن أولئك المثقفين قد تتلمذوا هم أنفسهم على يد المستشرقين من قريب أو بعيد فتأثروا بمناهجهم وأحكامهم...»[(٣)].

والغريب أن بعض المستشرقين ينكر على المنصفين منهم إنصافه، وهذا عجيب من قوم يدّعون الإنصاف، وطلب الحق، والتجرد من الهوى، لكنها

---

(١) انظر أسماءهم وبلدانهم في كتاب «المستشرقون والتاريخ الإسلامي»: ١٠٢.

(٢) انظر المصدر السابق: للدكتور علي الخربوطلي، وقد أجاد في كتابه هذا على صغر حجمه لكن كان فيه أخطاء -يعرفها المختصون- في الحكم على بعض الأعمال والأشخاص، وانظر كتاب «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي» للدكتور عبدالعظيم محمود الديب رحمه الله تعالى، وهو كتاب جيد في بابه، وانظر كتاب الأستاذ مصطفى السباعي -رحمه الله تعالى- «الاستشراق والمستشرقون».

(٣) «حوارات» أبو القاسم سعد الله، مؤرخ جزائري: ٩٨.

شِنشِنة عرفناها من أَخْزم، وطريقة مجربة من أولئك الذين يَشْرقون بالإسلام وأهله:

«انتقد أرنولد زميله في الاختصاص ريتشارد سيمون بأنه كان إيجابيًّا أكثر مما يجب في حديثه عن تاريخ الدعوة الإسلامية، كذلك انتقد عدد من المستشرقين مونتجمري وات[١] في كتاباته عن سيرة الرسول ﷺ.

ورغم عدد من النقاط السلبية في كتاب «حضارة العرب» للمستشرق لوبون[٢] فإن عددًا من المستشرقين انتقده بسبب تعبيراته الإيجابية المتعاطفة مع المسلمين»[٣].

ولقد انتقد إربراي ومونتجمري وات مستشرقةٌ من الجيل الجديد: باتريشيا كرون لكتاباتهما في تاريخ الإسلام مشككةً بالمصادر، محرفةً تفسير النصوص، منتهية بتخريجات لا تستند إلى أساس تاريخي.

ولم يتورع سارجنت من القول بأن مصير كتبها إلى مزبلة التاريخ»[٤].

وما زال هذا النقد الخاطئ موجهًا إلى المنصفين من المستشرقين إلى يوم

---

(١) وليم مونتجمري وات مستشرق بريطاني وأستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة أدنبره في أسكتلندا. ولد سنة ١٩٠٩، وتوفي سنة ٢٠٠٦، ومن أشهر كتبه: محمد في مكة، ومحمد في المدينة. ويكيبيديا. شبكة المعلومات الإنترنت.

(٢) طبيب مؤرخ فرنسي عُني بالحضارة الشرقية، وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب. له عدة كتب عن المسلمين وغيرهم. ولد سنة ١٨٤١، وتوفي سنة ١٩٣١ ويكيبيديا شبكة المعلومات.

(٣) «قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي»: ١٠.

(٤) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٠.

الناس هذا؛ فهذا مدير مركز الدراسات العربية المعاصرة مايكل هدسون من جامعة جورج تاون في واشنطن يشير إلى حملات النقد الحاد التي وصلت إلى حد التجريح المعادية للمركز، ويؤكد بأن المركز سيواصل بحوثه للتعريف بالعرب بصورة أقرب إلى الواقع مما أنتجته وتنتجه الدراسات الاستشراقية غير الموضوعية[١].

وقد حاول المستشرقون -من الكَنَسِيّين وغيرهم- تقبيح تاريخنا بكل ما أوتوا من قوة وذلك لأغراض عديدة، وفي ذلك قال الأستاذ محمد قطب حفظه الله:

«يحرص المستشرقون -كما قلنا- على تشويه معالم التاريخ الإسلامي عامة لأكثر من سبب واحد، فهم أولًا يشعرون بالغيظ من اعتزاز المسلم بإسلامه أو ما يمكن أن نسميه »استعلاء الإيمان، «يقول توينبي[٢] في محاضرة له عن الإسلام والغرب: من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي المسلم الذين كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من عَلٍ، وبما أن التركي التقليدي القديم كان يعد نفسه من طينة خاصة حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئًا ممقوتًا».[٣]

وفي هذا النقل اعتراف صريح صحيح بما جرى من تشويه لتاريخنا على

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أرنولد توبيني. ولد سنة ١٨٨٩ في لندن، وتوفي سنة ١٩٧٥. وهو من أشهر مؤرخي الغرب: ويكيبيديا: شبكة المعلومات الإنترنت.
(٣) «كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟»: ١٢٦.

أيدي هؤلاء ليس له نظير في تواريخ الأمم.

ثم قال الأستاذ محمد حفظه الله:

«ثم إن للمستشرقين هدفًا آخر من تشويه معالم التاريخ الإسلامي إلى جانب قتل «استعلاء الإيمان» الذي يثير حفيظتهم؛ لأنه يصعب مهمة القضاء على شخصية المسلمين وتمييعها، ذلك الهدف هو محاولة القضاء على الصحوة الإسلامية الخطرة، التي تؤذن بعودة الإسلام إلى الوجود والسيطرة كما كان من قبل، وهو أشد ما تفزع منه الصليبية والصهيونية...

ولما كانت أمجاد التاريخ الإسلامي من أشد الأدوات التي تستخدمها الدعوة الإسلامية تأثيرًا في وجدان الناس؛ لأنها تذكرهم بهذا التاريخ العظيم الذي انقطعوا عنه فتحفزهم إلى محاولة استئنافه من جديد، فمن الطبيعي بالنسبة إلى أصحاب المخطط -وجهازه الثقافي بصفة خاصة- أن يحرصوا على تشويه ذلك التاريخ لعلهم يبطلون مفعوله بالنسبة للدعوة الجديدة... ثم يجيء المؤرخون العرب فيأخذون سمومهم بلا تحفظ فرحين مستبشرين أن وقعوا على تلك الكنوز التي كشفت الغاشية عن عيونهم فأبصروا ما كان خافيًا عليهم من حقائق التاريخ، وقد يغرهم ما تلجأ إليه المدرسة الحديثة من المستشرقين من مزج السم بالعسل فيظنونهم مخلصين للحق، نزيهين نزاهة علمية فيأخذون عنهم بلا تحفظ».[1]

والخلط الكبير الذي وقع فيه المستشرقون بقصد وتصميم -في أكثر

(١) «كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟»: ١٢٦.

الحالات- إنما هو ناتج عن غرور، وتصور خاطئ أن الحضارة الغربية لم يكن مثلها حضارة على مدار تاريخ الزمان:

«المستوى الحضاري الذي اعتادت عليه أوربا الغربية ابتداء من عصر النهضة والذي امتاز بتفوقه المادي والحضاري أوجد عقدة الاستعلاء لدى بعض مفكري أوربا، ومنهم بعض المستشرقين الذين تناسوا المستوى الحضاري الواطئ الذي كانت عليه مجتمعاتهم في العصور الوسطى، بل إنهم لم يتحملوا حتى التفكير في حضارات كانت أرقى منهم ماديًا وروحيًا، يقول المستشرق الروسي بارتولد(١) معترفًا:

«إن الأسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبر أوروبا في كل العصور تحتل الأهمية العالمية سياسيًا وحضاريًا كالتي نتمتع بها الآن».

لقد كانت النتيجة بقدر تعلق الأمر بحركة الاستشراق ظهور فئة من المستشرقين تحمل فكرًا لا يؤمن إلا بالقهر والسيادة والتميز العرقي والهيمنة الثقافية دون الاعتراف بالتبادل الفكري أو الأخذ والعطاء بين الحضارات المتنوعة، وقد بدا ذلك واضحًا في تفاسيرهم للتاريخ والحضارة العربية الإسلامية... وفي هذا الشأن يعترف أحد المستشرقين المعاصرين قائلًا: «ولا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الهوامش المرصوصة بالأبحاث العلمية».

---

(١) فاسيلي بارتولد ولد سنة ١٨٦٩. توفي سنة ١٩٣٠ : ويكيبيديا. شبكة المعلومات. الإنترنت.

إن هذه الحقيقة هي التي تفسر هفوات بعض المستشرقين الذين عُرفوا بالموضوعية والتجرد، ذلك أن المستشرق وبسبب من ثقافته وبيئته المشبعة بروح العداء للإسلام لابد أن يشتط شعوريًّا أو لا شعوريًّا في بعض أحكامه، فيجتر بعض مظاهر الصورة المشوهة للإسلام من تراثه الأوربي المتراكم عبر القرون.(١)

ـ ثم جاءت الداهية الدهياء حين ضُمنت تلك الأكاذيب الاستشراقية الكنسية مناهج المسلمين فضللت أكثر الأجيال المسلمة، وشوّهت فهمها لتاريخنا، قال الأستاذ محمود شاكر ياسين:

«في المرحلة التي طغى فيها الأوربيون ثم الأمريكان على الأمصار الإسلامية عسكريًّا وفكريًّا، ووضعوا لأهلها المناهج الدراسية، وألحقوهم بهم علميًّا واجتماعيًّا أخذوا بنبش ما دوّن الأعداء والحاقدون والمرجفون، وضمنوا(٢) المناهج إضافةً إلى ما سجلوه عن التاريخ النصراني والفكر المادي بصورة مشرقة مخالفين العلم والحقيقة والواقع، ومع هذا الأسلوب التعليمي كانت وسائل الإعلام تردد ذلك حتى غدا بعض المسلمين تبعًا لثقافة أوروبا وأمريكا»(٣).

انحراف كثير من المؤرخين المسلمين المعاصرين:

هناك كثير من المؤرخين المسلمين انحرفوا في كتاباتهم التاريخية، وابتعدوا عن الصواب، ولذلك أسباب منها:

---

(١) «قراءات ومراجعات نقدية»: ١٤٩، ١٥٠.

(٢) لعلها: وضمنوها المناهج.

(٣) «الثقافة التاريخية»: ٧-٨، وفي السياق ضعف لكن المعنى مفهوم.

١) ضعف الالتزام بدين الإسلام أو انعدامه تمامًا، والارتماء في أحضان المذاهب القومية واليسارية وغيرها، وهذا أورثهم قصورًا في الفهم والتصور، فخرجوا بسبب ذلك بنتائج خاطئة أثناء دراستهم للتاريخ وتصديهم له.

٢) لم يجمع أولئك المؤرخون بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية على وجه يضمن لهم التوازن في الفهم والتصور، والارتباط بالمنهج الإسلامي في فهم التاريخ.

٣) الانهزام التام أمام الحضارة الأوربية والانبهار بمنجزاتها، والشعور الخاطئ بالقصور المنهجي الإسلامي إزاء المناهج الغربية، وهذا يجعل المؤرخ مرددًا -من حيث يشعر أو لا يشعر- لأفكار المؤرخين الغربيين ودراساتهم، ويضعف تمامًا الاعتزاز بالمناهج الإسلامية في الدراسة والبحث.

٤) المتابعة لمناهج المستشرقين متابعة عمياء في كثير من الأحيان، مما ينتج أخطاء فادحة.

ومن الأمثلة على هذا الدكتور محمد حسين هيكل[1] -رحمه الله تعالى- في

---

(١) هو محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥. كاتب، صحفي، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة. تخرج في مدرسة الحقوق في القاهرة، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السربون في فرنسا، وافتتح مكتبًا للمحاماة في المنصورة، وكتب في الجرائد، وترأس تحرير جريدة «السياسة» اليومية ثم الأسبوعية، ودرس القانون المدني في الجامعة المصرية القديمة، وولي وزارة المعارف مرتين؛ ثم رأس مجلس الشيوخ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ١٠٧/٦.

كتابه «حياة محمد» ﷺ فقد ذكر في المقدمة بوضوح لا لبس فيه أنه متابع لأولئك، وقد أخطأ أخطاء كبيرة في كتابه هذا بسبب متابعته لمنهج مَن ذكرهم في مقدمته من المستشرقين.

١١- إحسان التعامل مع تاريخ آخر الزمان:

وهذه قضية مهمة جدًّا؛ فقد زلّت بها أقدام، وضلّت فيها أفهام، وقصرت فيها ألسنة وطالت أخرى!! وهناك جملة من القضايا في هذا الباب منها:

ظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم - عليهما الصلاة والسلام- وغير ذلك من أحداث وعلامات آخر الزمان واقتراب الساعة أُسيء فهمها أو أُسيء تنزيلها على الواقع، وإنما قلت هذا لما تركته هذه الأحداث في نفوس كثيرين من آثار مدمرة أوجزها في التالي:

١) الاتكال على هذه الأخبار وترك العمل:

قد تعلق بهذه الأخبار ونحوها أقوام تعلقًا أفضى بهم إلى ترك العمل والجد والاجتهاد بدعوى ترك ذلك للمهدي إذا ظهر!! وهذا مخالف لنهج النبي ﷺ الذي بينه بقوله: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[(١)] حتى أن بعض الناس دعا إلى عدم مواجهة اليهود لأن الحديث الصريح الصحيح فيهم أنهم سيقاتلهم المسلمون قبل قيام الساعة: «لا

---

(١) رواه أحمد (١٢٥١٢) واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد (١/١٦٨)، قال شعيب الأرنؤوط وآخرون: إسناده صحيح على شرط مسلم، انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠/٢٩٦) المحقق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله ابن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى (١٤٢١هـ-٢٠٠١م).

تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١] وهذا فهم خاطئ للحديث وترك للأمر الصريح بجهاد الكافرين المعتدين المحتلين لبلادنا.

٢) إهمالها بالكلية:

وهذا خطأ ومناف لمنهج النبي ﷺ الذي حذر مرارًا من الدجّال وأمر الأمة بالتحذير منه، وقد قصّ علينا ﷺ جملة من أخبار آخر الزمان، بل قد جاء جملة منها في القرآن العظيم، فالإعراض عنها جهل وجفاء وسوء قراءة للوحيين.

٣) إساءة تفسيرها:

فكم من جماعات ضلت بسبب التعلق بظهور المهدي، وكان هذا منذ القرن الأول؛ فقد كان محمد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢] يُنادى عليه من قبل بعض الناس بأنه المهدي[٣]، وظهر ما لا يمكن حصرهم ممن ادعوا المهدية إلى زماننا هذا الذي حدثت فيه مأساة الحرم المكي المعروفة بسبب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) محمد بن علي أبي طالب القرشي الهاشمي المدني، أخ الحسن والحسين، وأمه من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق وهي خولة بنت جعفر الحنفية. مات سنة ٨٠. انظر «سير أعلام النبلاء» ٤/ ١١٠-١٢٩.

(٣) هو مهدي السنة الذي بشر بمجيئه آخر الزمان النبي ﷺ.
وانظر هذا في «سير أعلام النبلاء» ٤/ ١١٠.

التعلق الموهوم بالمهدي. وذلك في صدر القرن الخامس عشر الهجري: ١٤٠٠/١/١.

وكم من جماعات في زماننا هذا تتبعت أحداث آخر الزمان تتبعًا خاطئًا في التوراة والإنجيل المحرفين!! وفي كتب الرهبان الكذبة الكفرة! وفي بعض أخبار بني إسرائيل الواردة في الكتب المشتهرة بإيراد المكذوبات والموضوعات والأخبار الساقطة وشديدة الضعف، ومسألة آخر الزمان من الغيب الذي لا يؤخذ إلا من القرآن والسنة الصحيحة وقد جمعني ببعضهم مجالس تحسرت فيها على ما وصل إليه تفكير هؤلاء من عقم وضعف، وتفصيل ذلك كالتالي:

قد كثر الحديث في الآونة الأخيرة - الثلاثين سنة الأخيرة تقريبًا- عن أخبار آخر الزمان، والفتن التي ستظهر، وعلامات الساعة الصغرى والكبرى، وقد كانت أحداث الحرم ١٤٠٠/١/١هـ /١٩٧٩م وظهور ما سُمي خداعًا بالمهدي بداية حقيقية للخوض الطويل في أحداث آخر الزمان وفتنة وأشراط الساعة، وظهرت بعد ذلك كتابات كثيرة تحدد موعد قيام الساعة بالشهر والسنة!!! وفي هذا خلل عقدي واضح، وضعف في التصور الشرعي، وخرج علينا من يحدد لنا وقت ظهور المهدي، ووقت ظهور الدجال إلى آخر تلك التُرّهات.

وقد جمعني مجلس ببعض هؤلاء سنة ١٤١٢ تقريبًا/ ١٩٩٢ فإذا بكبيرهم يقول: لقد ظهر «بيل» الذي تحدثت عنه التوراة!

فقلت له: أيّ «بيل» هذا؟

فقال: بيل كلينتون!!

فقلت له: إن اسمه ليس «بيل» بل وليام، وهذا هو اسم آخر أُطلق عليه تخفيفًا، ثم هل نأخذ أخبار الغيب من التوراة المحرفة المكذوب أكثرها؟!

ثم أفاض الحاضرون في ذكر هذه الخزعبلات وحاولت أن أبين لهم وجه الحق دون جدوى.

وأعرف بعض الإخوة كانوا يسكنون في جدة فشاع أن هنالك هَدّةً ستكون في جدة في رمضان سنة كذا!! فخرج من جدة هاربًا إلى المدينة النبوية المنورة ليسكن فيها طالبًا السلامة!! هكذا صنع دون نظر شرعي في الحوادث.

وكل تلك الأحاديث والأخبار المزعومة في تحديد وقت الفتن الكبرى ووقت ظهور المهدي أو الدجال لا يجوز تداولها ولا الخوض فيها؛ فهي من أخبار الغيب الذي استأثر الله - تعالى - به، والمطلوب من المسلم أن يعمل ويجتهد في عمارة الأرض والدعوة إلى الله - تعالى - والعمل لدينه فإن جاءت الساعة أو أشراطها العظام وهو حي فقد صنع ما ينبغي أن يصنع، وإلا فقد كُفي، والله أعلم.

وما أحسن قول أحد السلف - وهو سفيان الثوري[1]- لما سُئل عن المهدي فقال: إن مَرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه[2]، فرحمة الله على أولئك فهم أهل الفقه والفهم.

ومن الكتب المهمة في هذا الباب:

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ الكوفي، شيخ الإسلام، الإمام الحافظ سيد الورعين. توفي سنة ١٦١ رحمه الله تعالى. انظر «نزهة الفضلاء»: ٤٦٠.

(٢) «حلية الأولياء»: ٧/٣١.

١) «موقف أهل السنة والجماعة من تنزيل نصوص الفتن وأشراط الساعة على الحوادث: السفياني أنموذجًا»: أ.زاهر الشهري.

٢) «خدعة هرمجدون»: د.محمد أحمد إسماعيل المقدم.

وقد قرأت كتبًا صُنفت في هذا الباب عجبت من تهافت منطقها وضعف حججها وسوء إيرادها، وقد وقع مصنفو هذه الكتب في خطأ فادح يوم حددوا وقوع الساعة أو ظهور المهدي أو خروج الدجال بالسنة بل بالشهر، وهذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، تعالى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمطلوب أن يقرأ المرء تاريخ آخر الزمان بنية الاستفادة واستنباط العبر والعظات، وبنية الاستعداد ليوم المعاد، لا أن يقتحم الغيب المجهول بتخرصات وظنون وأوهام لا تستند إلى حقائق، والله الموفق.

١٢- السيطرة على المشاعر التي تنتاب قارئ التاريخ:

هناك مشاعر عديدة تنتاب قارئ التاريخ، وهذا أمر لا يملك له الإنسان تحويلًا ولا تغييرًا فهو من جملة طبائع البشر، ومن هذه المشاعر:

مشاعر السرور والحزن، وما ينبني عليها من تبعات الأمل واليأس؛ وذلك أن قارئ التاريخ يقع أثناء قراءته له على أحداث عديدة منها ما يسره مثل أخبار انتصارات المسلمين، وأفراحهم بانتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجًا، فيُسّر القارئ بهذه الأحداث سرورًا عظيمًا ويمتلئ صدره فرحًا واستبشارًا.

ويحدث العكس من ذلك إن اطلع القارئ على أخبار الهزائم فإنه يضيق

صدره ويغتم، ويقارن ما حدث بأخبار زمانه المليئة بالهزائم للمسلمين، وبتراجعهم الحضاري والعلمي، فهذا يزيده حزنًا على حزنه، وانكسارًا على انكساره.

وهذا كما قدمت أمر طبيعي لكن ينبغي ضبطه حتى لا يؤدي بالقارئ إلى آفتين خطيرتين:

الأولى: في حال طغيان السرور:

إن طغيان السرور على قارئ كتب التاريخ ربما يؤدي به إلى قلة التبصر أو عدمه في العبر والعظات، وهذا يفوت عليه الفائدة الكبيرة من قراءة التاريخ؛ وذلك لأنه ما مِن حَدَث من أحداث التاريخ التي فيها فرح وسرور إلا ويداخلها شيء من الأخطاء والقصور -حاشا الأحداث المتعلقة بالنبي صلى الله عليه وسلم- وينبغي النظر فيها بروية واعتبار حتى تُتجنب هذه الأخطاء مستقبلًا.

الثانية: في حال طغيان الحزن:

إن قارئ الأحداث المحزنة في التاريخ -وما أكثرها- قد يصاب بشيء قليل أو كثير من اليأس والقنوط، وهذا مرض خطير يصيب القارئ فيجعله عازفًا عن العمل، يائسًا من نصرة الإسلام، خاصة أنه يشاهد بأم عينيه ما يجري على بلاد الإسلام اليوم فيزيده هذا كآبة وحزنًا ويأسًا، وهذا يؤدي به في أكثر الأحوال إلى الانقطاع عن العمل للتمكين لهذا الدين، بل قد يصبح ممن يشيع روح اليأس والقنوط في الناس، حتى يصير ممن يلهج بذلك في كل وقت، ويحدث أضرارًا بالغة في نفوس ومشاعر الذين يحدثهم، ولا يهدأ له بال حتى

يُقَنِّطهم كما قنط هو، ويُؤيسهم كما يئس هو، وهذا الشخص ينبغي عزله عن المجتمع كما يعزل المريض الجَرِب حتى يعالج معالجةً تعيده إلى صوابه، وتبث الأمل في نفسه من جديد.

ولا بد أن يدرك قارئ هذه الأخبار المحزنة أن الله تعالى جعل الأيام دُوَلًا بين الناس، فيومٌ لهم ويومٌ عليهم، قال سبحانه:

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وأنه ﷻ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]

وقد قال جل جلاله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

هذا وإن أشد أحداث تاريخ الإسلام إيلامًا للقارئ وأكثرها حُزنًا هي أخبار الأندلس وانقطاع حكم الإسلام فيها، وخروج المسلمين منها، وما صاحب ذلك من ويلات وشدائد عظام، فالقارئ لهذه الأخبار يشتد حزنه ويعظم ألمه، لكنه إن أدرك أن في هذه المدة من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان فتح القسطنطينية وزوال الدولة البيزنطية الشرقية إلى الأبد على يد الدولة العثمانية، وابتداء انتشار الإسلام في البلقان وأوروبا الشرقية، إن أدرك القارئ ذلك فسيُسَرّى عنه، ويخف عليه ما يجده.

وإذا قرأ القارئ أن الدولة العثمانية أخذت في الضعف منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وقرأ أخبار الهزائم التي أصابتها

فسيضيق صدره ويعظم مصابه -خاصة إذا كان القارئ ممن يهمه أمر الإسلام والمسلمين- لكنه إذا عرف أن ذلك الزمان هو وقت صعود دولة المغول المسلمة في الهند وبروز سلاطين عظام على رأسهم السلطان الكبير أورانج زيب عالم كير[١]، وإذا عرف أيضًا أن زمن الضعف ذاك قد شهد ميلاد دولة عثمان بن فودي في نيجيريا وما حولها وما كان لها من أثر عظيم في إفريقيا السوداء، إذا عرف كل ذلك فسينشرح صدره، ويذهب عنه كثير مما يجده في صدره.

والمقصود أنه ينبغي لقارئ الأحزان التاريخية أن يتأثر بها لكن بدون إفراط وبنظر شامل بحيث يتجنب بهذا اليأس والقنوط، ويعظم أمله وينفي عن نفسه الحزن المؤدي إلى الانكسار.

❋ ❋ ❋

---

(١) الإمام المجاهد المظفر محي الدين محمد أورانج زيب عالم كير ابن شاهجهان. سلطان المغول في الهند. وحاكمها قرابة خمسين سنة. كان عادلًا شجاعًا، قويًا، مرهوب الجانب. نشر الإسلام في معظم القارة الهندية التي دانت له كلها ولم تَدِن لأحد من أباطرة المغول قبله. له فضائل كثيرة. ولد سنة ١٠٢٨ وتوفي بالدكن من أرض الهند سنة ١١١٨. انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٦/١٢٩-١٤٣.



خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كانت هذه رسالة موجزة أتيت فيها على رءوس المسائل المهمة لمن يريد التعرف على كيفية قراءة التاريخ والاستفادة منه.

ولست أزعم أني بهذه الورقات قد وفيت الموضوع حقه لكني إنما بينت ما أريده بإيجاز، وأما مريد التفصيل والتطويل فعليه بما ذكرته له من كتب ليرجع إليها، والله الموفق.

وربما شعر قارئ هذا الجزء بأن هنالك جوانب من كيفيات قراءة التاريخ وفهمه ما زالت غامضة أو مبهمة، وهذا أمر وارد، وذلك لأن الموضوع الكلي -وهو التعريف بعلم التاريخ- مقسم إلى أجزاء، وهذا هو الجزء الأول، وسيجد القارئ بغيته -إن افتقدها هاهنا- فيما سيخرج تباعًا من أجزاء -إن شاء الله تعالى- فالموضوع طويل وشائك فليوغل فيه القارئ برفق ليستفيد الفائدة المرجوة، بإذن الله تعالى.

وهذه كانت الرسالة الأولى، والرسالة الثانية القادمة قريبًا -إن شاء الله

تعالى- ستكون بعنوان «إعداد المؤرخ الثقة»، وهي نافعة -بإذن الله تعالى- لمن أراد أن يكون مؤرخًا نافعًا لأمته ودينه، والله المستعان، وفيها جوانب عديدة من علم التاريخ لم أذكرها هاهنا.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وأجل وأعظم، وصلِّ اللّٰهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المراجع

- القرآن الكريم.
- «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق»: د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت. نشر دار الوفاء. المنصورة. مصر. الطبعة الأولى سنة ١٤١١/١٩٩١.
- «التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام»: شاكر مصطفى. نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣.
- «تاريخنا المفترى عليه»: د. يوسف القرضاوي. نشر دار الشروق القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٤٢٦/ ٢٠٠٦.
- «الشماريخ في علم التاريخ»: الحافظ السيوطي = محمد بن عبدالرحمن (ت ٩١١). تحقيق الشيخ عبدالرحمن محمود. نشر مكتبة الآداب. القاهرة.
- «الثقافة التاريخية»: الأستاذ محمود شاكر.
- «بلدان الخلافة الشرقية»: كي ليسترنج. نقله إلى العربية كوركيس عواد

وبشير فرانسيس نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. نشر المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠/ ١٩٩٩.

«عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ»: د. حسان حلاق. بحث منشور في مجلة «آفاق الثقافة والتراث»: ٢٥. السنة الخامسة العدد ١٧.

«فصول مختارة من كتاب: التاريخ مرشد لدراسة متقدمة»: ل. ج براندون. اختيار الصديق بشير نصر. والفصول منشورة في مجلة كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس الغرب: العدد الخامس سنة ١٩٨٨.

«فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية»: د. عبدالحليم عويس. نشر دار الصحوة. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧/١٩٨٦.

«قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي»: د. فاروق عمر فوزي. نشر دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. عمان الأردن. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨/٢٠٠٨.

«الكامل في التاريخ» الإمام علي بن محمد = ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠). نشر دار الكتاب العربي بيروت الطبعة السادسة.

«لسان المحدثين»: الأستاذ محمد خلف سلامة. منشور على الإنترنت.

«المدخل إلى التاريخ الإسلامي»: د. محمد فتحي عثمان. نشر دار

النفائس. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨/ ١٩٨٨.

📖«المستشرقون والتاريخ الإسلامي»: د.علي حسني الخربوطلي. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٤٠٨/١٩٨٨.

📖المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ: د.عبدالعليم خضر. نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٥/١٩٩٥.

📖«المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ»: الأستاذ وليد نويهض. نشر دار ابن حزم. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٧/١٩٩٧.

📖«المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي»: د.عبدالعظيم الديب. نشر سلسلة كتاب الأمة. قطر. الطبعة الأولى سنة ١٤١١.

📖«منهج كتابة التاريخ الإسلامي، مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري»: د.محمد بن صامل السُلميّ. نشر دار ابن الجوزي. الدمام. الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

📖«الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»: د.محمود محمد الطناحي. نشر مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦/١٩٨٥.

***

الفهرس

